
AN EPIC LOVE FROM THE AUTHOR OF STORY OF SOMEONE
AFTER LOVE
Sometimes Dead is better
FIRASS JUBRANE

AFTER LOVE

بعد الحب

An epic love story from the author of "Story of someone" and "Inferiority"

FIRASS JUBRANE

All the events in this novel are inspired by fiction and any resemblance to this events, personalities or names it is coincidence no more.

Dedication

To all my exs…

Table of Contents

SPECIAL THANKS AND APPRECIATION

Nour Dalleh, Ghina Kadri

Maria Kamal,

Zeinab Baltaji

FACEBOOK:	FIRASS JUBRANE
TWITTER:	@JUBRANEFIRASS
INSTAGRAM:	@FIRASSJUBRANE
EMAIL:	NEWS4FIRAS@GMAIL.COM

First edition 2022

AUTHOR'S BIOGRAPHY

Born 5th of May, 1979, Firass jubrane began his career very early in his life. Consisting of 7 members including his father and mother, Firass was denied from carrying on with his career in theatre, since his parent's dream was that their only son pursues a doctorate degree. During his childhood, unlike all other kids who were fond of different kinds of activities like basketball, football and racing, he preferred to draw, read and write.

Equestrianism, petting animals and taking care of them, are special characteristics in him. Unusually, he has a different kind of phobia that rarely anyone has, and it revolves around the number 11. Despite of his feelings towards this number, many events, positive or negative, occurred to him on that date, whether they were important or not.

Even though his parents believed in him, and saw a great talent in writing stories as a child and selling them to all members of the family, he came up with a play and presented them in school and scouts.

However, he enrolled at the Lebanese University, paying his own tuition, took charge of himself by working at a radio station as a program producer, drew political caricature characters and wrote columns in newspapers, all before he became a graduate.

Quality of TV series for him mattered much more than quantity, delivering a purposeful message to his audience is all he cared about. Moreover, Firass Jubrane is someone who is career-oriented, who gives so much of his time, spends his days and nights to give his utmost to his addressees and his viewers. He does that willingly with such a giving heart to have reached his goal and fulfill his accomplishments.

At the time, Firass was the only one who revived the radio drama in his own special way. His achievements in 1999 include (Warak el kharif, Inta el madi, Ra7il, Jubran k. Jubran, Habib el rou7, Majhul

nasab, Cham3 el asswad, Omar & Selma, Al Wa7el, Al Karar 1701, La vie en rose, Kossas hob, Ramad el ayyam, 3ala Albak...). He wrote his first TV series called (Dumou3 el Nadam, Jude, Ahlam, Lol, Al Hob el kadim, Majnoun fiki, Al Haram…).

Firass Jubrane released his first musical album at the beginning of 2015, Titled «Part of My Life» where he composed and wrote the lyrics of the whole album, to become then the first musical album released by a writer.

«Osset 7ada» Story of Someone is the First print of Firass Jubrane collection, where he combines a novel in the theme of a Screen Play. Where in this print the audience will experience something new from the book that gives them the feeling of watching a cinematic film through its pages. Followed by the book «Khimya» Alchemy, and then by the writer's first experience in satirical literature «Este7mar» book.

They say, never judge a book by its cover. Firass Jubrane is someone who is sincere, who loves dearly from all his heart and nevertheless, is a caring and tender person. Firass Jubrane's theory in life says: "**LIVE FREE OR DIE**" ...

PROLOGUE

المقدمات لا يقرأها أحد

إقلب الصفحة ...

AFTER LOVE

Sometimes Dead is better…

Chapter 1

شغف

غمر الظلام مدينة بيروت، وأضاءت فوانيس الشوارع لتعكس على شاطئ المتوسط لوحة فنية غارقة في مآثر التاريخ على تيهٍ وعظمة.

ليالي بيروت رائعة فاتنة كعادتها، وكان البحر المتكسّر الأمواج عند أقدام ست الدنيا بيروت، يزيد روعة الليل الغامر بوشاحه الأسود الساحر.

وفي وسط المدينة، في دار فسيحة الأرجاء، دخلت كارمن الأسعد غرفتها تحزم حقيبتها للسفر إلى العاصمة الفرنسية باريس برفقة إبنها رودي.

أدارت كارمن وجهها نحو حقيبة السفر وهي تتنهَّد على رغم أنها كانت تشعر بالراحة بخصوص مغادرة بيروت في صباح اليوم التالي.

لقد كانت قلّما تسافر أو تخرج من المنزل، فقد كانت الفرص أو المناسبات نادرة بالنسبة إليها. أما الآن وقد سنحت لها الفرصة بذلك لكي تقوم بزيارة عائلتها المقيمة في باريس.

كارمن امرأة من عائلة رفيعة جداً، إنها ابنة السفير السابق اللبناني توفيق الأسعد، التي ولدت في باريس وقضت حياتها بين لبنان وفرنسا.

والدتها الرسامة الإسبانية إزادورا موفير، التي أطلقت عليها اسم كارمن، وهو اسم إسباني معناه "زهرة الربيع البريّة".

في سنوات مراهقتها أحبَّت رجل يكبرها بخمسة عشرة عاماً، وبسبب صغر سنّها ومستواه الاجتماعي عارض والدها هذا الزواج.

لقد كان خالد دائماً بارد الأعصاب والمشاعر. لم يكن لديه دفئ من أي جانب في حياته، وعلى رغم ذلك فقد كان عاطفياً محبّاً لها في البداية. وبسبب طبيعته تلك فإنها اعتبرت كل ابتسامة فازت بها وكل إيماءة دافئة حصلت عليها انتصاراً لها، وذلك لأنه لم يكن يظهر مودةً لأحد غيرها.

لقد كانت شابة فتية آنذاك وكانت مأثورة به. كان خالد رجلاً يسيطر في شكل كامل على كل جوانب عالمه. وكان يرى في ابنة السفير السابق الكثير من الأشياء التي تروق له.

تدلّلت كارمن كثيــراً وحزنـت كثيراً إلى أن حصلت على موافقة والدها، وكونها وحيدتــه ومدللتـه بارك زواجها من خـالد أبــو الشريف.

بعد حفلة زفاف كبيرة حضرها حشد كبير من رجال السياسة والشخصيات المرموقة الأوروبية والعربية، بدأ خالد يحصل على المساعدات المالية من والدها ويوسّع نشاطاته وينكب للعمل، وكارمن بدأت تكتشف حقيقة نواياه، ولكنها ظلت صامتة تمدّه بالفرص لعلها تحصل على فرصة إعادته إلى الصورة الأولى التي التقطها قلبها له في البداية.

أخذ خالد يلعب بالمال وأعماله توسّعت وكبرت مع الأيام، وراح ينصرف في العمل المتواصل هاملاً زوجته في المنزل وكأنها قطعة أثرية تزيِّنه، فضاقت الحياة بوجهها وشعرت بالأسى، لكنها لم تستطع الانفصال عنه لأن الأوان قد فات، ولأنها أنجبت منه رودي.

أقفلت كارمن حقيبة الملابس وتحضَّرت للاستسلام إلى النوم بعد أن أطلَّت على رودي وهو قد أصبح في الخامسة من عمره.

دخلت عليه بابتسامة رقيقة تشّع على وجهها فرأته صاحياً في سريره

- "لماذا لم تنم بعد يا رودي؟ " سألته بنبرة دافئة، لكنه أجاب على سؤالها بسؤالٍ آخر.

"لماذا لن يرافقنا أبي؟" وما عساها تجيب؟ هل تقول له إن والده لا يأبه لسفرها والابتعاد عن زوجته وابنه مهما بلغت طول الرحلة من وقت؟

فاكتفت بكلمة "مشغول" وقبلته ونصحته بالنوم، وانكبَّت على سريرها.

ولكن... من أين تأتي بالنعاس؟ كيف ستغطّ بالنوم العميق والأفكار تتصارع في رأسها؟

راحت كارمن تتذكر قصصاً وحوادث وأشياء كثيرة مرَّت في حياتها، تتقلب في السرير، أكثر من مرّة وضعت الوسادة فوق رأسها ربّما يزور النعاس اللعين جفنيها، وها هي تنهض من السرير، تشعل النور، وتسير نحو مكتبة صغيرة في الغرفة.

اختارت رواية تحمل اسم "الحب القديم" على رغم أنها سبقت وقرأتها منذ بضعة أشهر، ولكن لهذه القصة قواسم عديدة مشتركة بينهما، فبطلة الحب القديم اسمها أيضاً كارمن، تزوجت من نور، رجل أحبته حبّاً خيّب آمالها وشوّه لها المعنى الحقيقي للحب.

عادت الى سريرها وبدأت تقلّب في صفحات الرواية كأنها مجلّة فنية مليئة بصور المشاهير من دون أن تقرأ سطراً كاملاً من أيِ صفحة.

- "ما الذي يحدث معي هذه الليلة؟ هل سببه الشوق لملاقاة عائلتي أم السعادة من الخروج من سجني؟ وأي سعادة هذه، فمرجوعي إليه... تبّاً لهذه الحياة وتبّاً للواقع الذي أعيشه".

لم تكتفِ كارمن بهذا القدر من الحديث مع نفسها، رمت الرواية من يدها وأطفأت النور ودفنت رأسها مجدداً في وسط الوسادة وتابعت حديثها الممل: "ما كان سيحدث لو أن خالد كان خالد آخر... رجل شفاف يعشقني بجنون ويهتم بتفاصيل حياتي؟ ألهذه الدرجة أنا امرأة بشعة؟ نعم أنا لست بامرأة جميلة وربما لست بامرأة حتى، أصبحتُ أشك في وجودي ككائن بشري على وجه الأرض، فأنا بواقعي هذا أشعر وكأنني تمثال مركون في المنزل سيخرج منه غداً للصيانة".

مضت كارمن في العاصمة الفرنسية إجازة الصيف كاملة، وراحت تتردد إلى الأماكن الباريسية الراقية من مطاعم ومتاحف وحفلات كبيرة مع عائلتها، أصدقائها، معارفها وطبعاً وحيدها رودي.

وفي نهاية آخر أسبوع لها في باريس قبل عودتها إلى الأراضي اللبنانية حيث منزلها الكبير الذي يشبه إلى حدّ كبير السجن، توجهت إلى شارع بيكليه (Peclet) وقصدت قاعة " صالون دو ليفير" (Salon du livre) لتحضر توقيع كتابٍ جديدٍ لروائي فرنسي شاب، كانت قد تعرفت عليه قبل أسابيع فيٍ حفلةً عشاء أقامها صديقاً لوالدها في منزله.

دخولها إلى القاعة كان ملفتاً للأنظار بسبب جمال طلّتها وجاذبية تكاوينها، فكارمن امرأة طويلة، حمراء الشعر، ممشوقة ومتناسقة القامة، جميلة الشكل والوجه، وفي فصل الخريف ستكون قد تمَّت الرابع والعشرين من عمرها.

رحَّب بها الروائي الفرنسي أوليفيه سورون، الصديق الجديد، واهتم بها وشكر حضورها وعرّفها على أصدقاء له من الحاضرين، وكان بينهم نوح أو Noa كما يدعوه الفرنسيون، وهو صديق له من أصل لبناني، رجل أعمال كبير، متزوج من ثمانية أعوام وليس لديه أولاد.

لنوح هاشم قصة مختلفة وحياة مختلفة وعالم آخر، ولكن المأساة واحدة وهي مأساة الوحدة على رغم وجود زوجته الفرنسية سارة فيكتور بقربه.

فزوجته سارة امرأة مصابة بالصرع، تتنابها نوبات ليلية بحال تأخرت أو بدَّلت في مواعيد تناول أدويتها المزمنة، إضافة إلى ذلك فهي دائماً في مزاجين مختلفين، إما عصبية أو باردة، تهجر سريره في أوقاتٍ كثيرة، لا تهتم بأموره ولا تفرح بإنجازاته.

فلماذا هو معها؟ وما الذي يجبره على العيش مع امرأة مريضة بداءٍ مزمنٍ؟

نوح إنسانياً إلى درجةٍ مبالغ فيها، فهذه الصفة التي ورثها عن والده اللبناني عماد هاشـــــم حوَّلت حياته إلى ما هو عليه حاله، كان صديقه الروائي أوليفيه ســورون يصفه بالشـــمعة. وصحّ وصف الصديق الفرنسي له. فنوح كالشـــمعة تماماً، يحترق ليضيء.

نوح لم يتقرَّب ولم ينشّد لكارمن بسبب جمالها أو سحرها، ولكنه انجذب إليها بسبب الحنين إلى الوطن، فقد كان دائم الحنين إلى وطنه لبنان الحبيب، وبعد بضعة من الوقت أمضاه معاً في حفلة توقيع الكتاب انجذب إلى شخصيتها وطريقة تفكيرها.

أما هي فقد تأثرت في هدوءه وتواضعه، كما وجدت فيه في البداية رجلاً ذكياً، عميق التفكير ومن المريح جداً لها أن تتخذه صديقاً لها.

لقد كان هادئاً، سهل المعشر، وبدا شاباً بشكل مثير للدهشة، وسرعان ما أبدا حسّ الدعابة والمرح منذ اللقاء الأول.

- "هل تمانعين بمرافقتي إلى العشاء؟" سألها نوح وكانت حفلة التوقيع قد أشرفت على نهايتها، فوجئت كارمن من دعوته وفوجئت أكثر بنزولها لطلبه وتساءَلت في نفسها عن سبب قبولها دعوة رجل متزوج لها وحدها.

انتظر نوح ردّاً من كارمن التي لزمت الصمت وبدت مرتبكة، هل تقول نعم وترافقه إلى العشاء، أم تعتذر بلباقة ويذهب كل منهما في طريق؟

شعر نوح بالحرج، فابتسم ابتسامة صغيرة وقال معتذراً:

ـ "أظن أنني تماديت قليلاً بطلبي هذا... أعتذر سيدتي".

ـ "لا... فالأمر لا يستدعي الاعتذار أبدا".

ـ "إذاً؟".

ـ " ليس لدي أي مانع، شـــــــرط أن يكون المكان هادئاً ولا يضجّ بالناس".

ـ "بكل سرور سيدتي".

قال ذلك وكانت عيناه تلمعان، وكارمن بادلته نفس النظرة على رغم استغرابها من نزولها عند طلبه.

فكيف لامرأة رزينـة مثلها أن ترافق رجلاً لم تعرفه عينـاها أكثر من ســـاعة واحدة ؟، حاولت أن تتجاهل كل ما تصارعت في رأسها من أفكار وودعت صديقها الروائي الفرنسي وخرجت برفقة نوح.

تركت ســـــيارتها في شارع بيكليه (Pecl et) وصعدت إلى جواره في ســـيارته وتوجها إلى مطعم ليســـبادون (Les padon) لتناول العشاء. لفرش سيارته الجلدي الأسود رائحة مميزة سألته عنها.

ـ "إنه عطر هندي نادر ... أحضرت منه كمّيـة من الهند في الســـنة الماضية بعد أن راق لي ... ســـأعطيك واحدة منه كهدية في المرة التالية التي ســـــــأراكِ فيها" فنوح لم يكن يعلم أن ما بقي لها في باريس من الوقت لا يزيد عن عشرين ساعة.

ـ "أظن أنك ســتحتفظ بزجاجة العطر للصيف المقبل أو لوقتٍ أبعد من ذلك".

ـ "لماذا؟" فتح عيناه وسألها مستغرباً.

ـ "سأعود إلى بيروت غداً".

خشي نوح أن يعبِّر بالكلام كي لا تفهمه بشكل خاطئ واكتفى بحركة أسف بوجهه، وقال بلطف

ـ " أتسمعين موسيقى؟"

ـ "ماذا لديك من أشرطة؟" قالت مندفعة

فأشار لها إلى مكان الأشرطة لتختار، جميع الأشـــرطة في سيارته لفيروز ولارا فابيان.

ـ "إنهما المفضلتان عندي.."

قالت سعيدة واختارت شـريطاً لفيروز الذي بدا أكثر سحراً لأنه كان ينســـاب على مســـمعها خارج الوطن وفي هدوء الشـــــارع الليلي الباريسي.

"بكتب اسمك يا حبيبي عالحور العتيق ... بتكتب اسمي يا حبيبي عَ رمل الطريق ... وبـكرا بتشـــتي الدنيي ... عالقصص المجرّحة ... بيبقى اسمك يا حبيبي ... واســــمي بينمحى ... بيبقى اســـمك يا حبيبي واسمي بينمحى..."

كلمات الأغنية كان تتطابق على حياتهما، فكلّ منهما له شـريك يقول "يا رب نفسـي" ولا يأبه لمشاعر الآخرين.

في هذه الأثناء الزوجة ســـارة فيكتور كانت مع صديـــقة لها خارج العاصمة تلهو وتمرح، أما الزوج خالد أبو الشــريف في بيروت يعمل أو يخطّط لإنجاز عمل جديد كعادته.

جلســـت كارمن بجواره على طاولة العشـــاء واســـتمتعت بصحبته، وكانت بغاية الســـرور والدهشة إذ طلب منها تبادل الأرقام ليتواصل معها بعد ســـفرها عن باريس، لم تتمنّع أو تتأخر بتلبية طلبه، ربما يعود السبب فقط إلى طريقة طلبه اللبقة.

كان حديثهما يكاد لا ينتهي حول حياتهما، فقد فتن نوح بقصصها، وهي أيضاً كذلك، وأصابتهما حالة من الدهشـــــة عندما وجد كل منهما نقاط كثيرة مشتركة حتى في انواع الموسـيقى، أصناف الأكل التي اختاراها على مائدة العشـــــاء، وحركات اليد التي قاما بها بصورة عفوية غير مقصودة.

ـ "ما الذي جعلك تذهبين لحضور توقيع كتاب أوليفيه سورون؟ " سألها نوح وفي سؤاله معنىً آخر فهمته على الفور.

فأجابت مبتسمة:

ـ "عن أي سؤال تريد أن أجيبك؟".

لمعت عيناه بسبب ذكائها، فبادرها بابتسامة وردّ بصوتٍ دافئ وكأنه يريد التخلص من الموقف:

ـ "أنا لم أطرح عليكِ يا سيدتي سوى سؤالاً واحداً؟

ـ "ولكنك قصدت به سؤالاً آخر".

سكب نوح كوباً من الماء وتناول منه جرعة ورفع نظره إليها قائلاً: "أنتِ أذكى مما تصورت، هذا صحيح، لقد قصدت به سؤالاً آخر، كنت أنوي أن أسألك، هل كنتِ تتوقعين أننا سـنلتقي ونقضي معاً وقتاً جميلاً هكذا؟".

فردت عليه بشفافية جاذبة:

ـ "تريد أن تسمع الإجابة أم إجابتي وصلتك؟".

ضحك نوح ضحكة نابعة من قلبه وكأنه طفل في الســنة الأولى من عمره، واكتفى بدلاً من الإجابة بحركة صغيرة في عينيه.

نظرت كارمن إلى ساعتها ثم قالت بأسف:

ـ "أتمانع بتوصيلي إلى ســـــيارتي ؟... لقد تأخر الوقت وابني في المنزل"

ـ "ولكن رودي الآن في المنزل مع عائلتك... لا ينقصه شيئاً"

جواب نوح كان كنســمة الهواء الباردة على وجهها، فلماذا يصرّ هذا الغريـــــب على البقاء أكثر إلى جانبها ؟ ، ولماذا هي معه وبرفقته أصلاً ؟ هل تجرؤ كارمن أن تقوم بمرافقة شـــــخص لا تعرف عنه شيئاً لو كانت في بيروت ؟".

هل هي تــخون زوجها خالد أبو شــريف في مرافقة نوح إلى مطعم ليسبادون الذي يرتاده شــخصيات مرموقة من المجتمع الفرنسي والأوروبي؟

أسئلة كثيرة جالت في رأسها، لا تستطيع الهروب من طرحها على نفسها.

وبسبب صمتها جال في رأس نوح أسئلة عديدة ايضاً، هل قوله لها حول ابنها فيه إحراجٌ لها ؟ هل هناك سرٌ تخفيه عنه ؟ ولكنها بدت أكثـر من واضحة طيـلة حديثهما عن حياتـها وفي قصصها، ماذا يحدث ؟

فاعتذر على ما قاله ولكنها بادرته مســــرعة من دون تفكير. "على ماذا تعتذر؟ أنتَ لم تســئ إليّ بشيءٍ يســـــتدعي الاعتذار" .
فهزّ برأسه وطلب الحساب للانصرافٍ من دون أي تعليق.

صعدت كارمن بجانبه في ســـــيارته البيضاء ذات الزجاج الأسود والعطر الهندي من دون أن تنطق بحرف، وهو كذلك، وســاد بينهما

صمت طويل إلى أن اقتربا إلى سيارتها التي ركنتها في موقف قاعة "صالون دو ليفير".

حاول نـوح أن يقطع الصمت عدة مرات ولكنه لم يتـمكَّن، ماذا حدث لها، فمنذ قليل كانا يطلقا الأحاديث والقصص والأخبار بشكلٍ يفوق عادتهما، هل هي لحظة الوداع لأمسيتهما الغير مرسومة؟

أوقف سـيارته وترجّل منها مسرعاً ليفتح لها الباب كما هي تقاليد أصحاب المسـتوى الرفيع في المجتمع، فابتسـمت ونزلت منها وتقابلا بنظرة متبادلة.

ـ "وماذا بعد؟".

قال نوح وعلى وجهه ألف عبارة...

تجاهلت كل هذا، وتمالكت نفسـها وابتسـمت ابتسامة رزينة قائلة بعد ذلك:

ـ " تشرفت جداً بمعرفتك سـيد نوح... آمَلُ أن نجتمع إن شاء الله في وقتٍ قريب".

أخذ بيدها وقبلها وأحنى رأسه قائلاً:

ـ "أتمنى ذلك سيدتي..."

استدارت وما لبثت إن سـارت عنه خطوتان إلى أن ناداها: "سيدتي لحظة "، توقفت عن السير ولم تستدر إلا بعد ثوانٍ، فرأته قد أخذ من المقعد الخلفي لسـيارته كتاباً وقدمه لها.

ـ "هل تقبلين مني هذه الهدية؟".

يا لهذه المصادفة الغريبة جداً، إنه كتاب الشـــــــغف (les passions) الذي نوت شراءه قبل عودتها إلى بيروت، إستغرب نوح ردة فعلها.

- "ولكن ماذا في ذلك؟".

- "لا، ولكني كنت أنوي أن أبتاعه غداً من المكتبة قبل ذهابي إلى المطار..."

- "هل تمازحيني؟" سألها

فابتسـمت وشكرته على كل ما حدث بينهما، وانصرف كل منهما في طريقه.

وقفت كارمن أمام نافذة غرفة نومها بعد يومٍ مليء بالأحداث، تنظر إلى الحديقة في منزل والدها في باريس. إنه المنزل الذي كانت قد قضت فيه معظم طفولتها ومراهقتها قبل زواجها بخالد، والذي كان قد أبصر ولدها رودي النور فيه، كان المنزل عتيقاً وجميلاً بأسطحه العالية والقوالب الجميلة ، كان كل ما حولها يتألق وقد عُني به أن يكون في منتهى الجمال والكمال.

وكانت الحديقة مشذبة بعناية، والأزهار البيضاء المغروسة تعتبر من أجمل الورود في بأوروبا.

أخذت تنظر وتتأمل كل شيء، وتفكيرها ما زال معلقاً بنوح وبما حصل معها.

تفكيرها استغرق وقتاً طويلاً من دون أن تنتبه أن جسمها قد تعب من الوقوف، " ألهذا الحدّ هذا الرجل يشبهني أكثر من صورتي

المرســـــــــــومة ؟ " ســـؤال قطع تفكيرها وأرغمها على التوقف عن التفكير والتوجه إلى السرير للخلود إلى النوم...

Chapter 2

عودة السجينة

عادت كارمن إلى بيروت، وعادت السجينة لزنزانتها السابقة، وما لم تكن تحسبه أنها سوف تتلقى فور خروجها من مطار بيروت رسالة على هاتفها المحمول من نوح كتب لها فيها بالفرنسية:

"حمداً لله على سلامتك وأتمنى اللقاء في القريب..."

لم تستطع كارمن القيام بأي رد فعل حيال ذلك، لأن خالد كان جالساً بقربها يقود السيارة.

ـ "هل استمتعتي؟ "سألها خالد من دون أن ينظر إليها، وكأن السؤال كان لرفع العتب فقط.

رودي كان نائماً على المقعد الخلفي للسيارة تعباً من ساعات السفر .

ـ "رودي كان دائم السؤال عنك... ليتك لحقت بنا... فنحن وعائلتي أمضينا إجازة رائعة...".

ـ "وكيف هو والدك ؟" سألها وهو ينظر إلى الساعة وكأن لديه شيء ما.

ـ "بخير" أجابته بابتسامة مجاملة واستطردت قائلة:

ـ "أنهيت عملك لليوم أم ما زال لديك شيء ما؟".

فأجابها بأن لديه الكثير من الأعمال والمواعيد، ولولا اشتياقه الكبير لها لأرسل سيارة أجرة تنقلهما من المطار إلى المنزل.

يا لهذه التضحية الكبيرة، ويا لهذا التعبير العميق عن مدى اشتياقه الكبير لزوجته وابنه اللذان غابا عنه إجازة فصل الصيف بالكامل.

في صباح اليوم التالي لعودة كارمن إلى بيروت، استيقظ خالد من نومه كالمعتاد عند التاسعة من كل صباح، فتثاءب وتمطّى، واستعاد إلى الذاكرة صوراً من الحلم الذي ألم به، ثم تذكر فجأة أنه لا ينام إلى جانب زوجته بل على الأريكة الجلدية في مكتبه. فنهض وانتعل حذاءه البني وخرج قبل وصول السكرتيرة التي يبدأ دوامها اليومي عند التاسعة والنصف. أدار محرك السيارة وانطلق مسرعاً إلى المنزل من دون أن يغسل وجهه في المكتب قبل المغادرة.

من يتابع هذا المشهد يقول إن خالد أبو الشريف شعر بتأنيب الضمير تجاه زوجته الرقيقة، زهرة الربيع البريّة كارمن ، وذهب إليها لتحسين موقفه.

لا... إنها ليست من صفات هذا الزوج، فمن وجهة نظر خالد أن المكوث على كنبة المكتب الجلدية بعد إرهاقٍ طويل في العمل ليلة كاملة بعيد فيها عن المنزل ليس بالأمر الكبير ولا يستدعي حتى للتبرير.

عندما وصل إلى المنزل ودخل غرفته، وجد كارمن تقف أمام الخزانة تعيد الفستان الأسود الذي ارتدته في حفلة توقيع الكتاب، ورافقت نوح فيه إلى المطعم لتناول العشاء.

دخل عليها بكل برودة أعصاب، "صباح الخير، هناك ورقة مهمة أريد أن آخذها من درج خزانتي وأعود إلى العمل. فلدي اجتماع مع رجل وصل من الصين عند العاشرة والنصف ".

حينها شــــعرت بغصة كبيرة، على الأقل على خالد أن يعطيها سبباً لغيابه عن المنزل، حتى لو كان السبب كاذباً، فمن المؤكد أن تشعر المرأة أن زوجها يقوم بخيانتها.

أخذ خالد الورقة التي عاد إلى المنزل بسببها وانصرف بعد إن قال لها "أراكِ في المساء".

شعرت كارمن وكأنها تختنق وأحسَّـــت بشـــيء يقف في حلقها حتى يكاد يكتم أنفاسـها، كما أن الدموع لمعت في عينيها، وكأنها توشك أن تسيل من عينيها.

أي حياة تعيش هذه المرأة؟... ولأي هدفٍ فيها؟

بدّلت ملابســـــها ووضعت نظارة شـــمسـية، ومن دون أن تضع أي مســــــــحوق تجميلي على وجهها، خرجت من المنزل تاركة رودي برعاية المربية وهامت على وجهها، وأخذت تقضي ســـحابة نهارها متنقلة من مكان إلى مكان في السـيارة تتساءل ملياً، ثم تفكر وتقدح زناد الفكر، ولكنها لم تهتدِ إلى حل لمشكلتها.

كارمن لا تريد أن تبقى في ســــــــجنها، ولكن ما هو المبرر الذي ستقدّمه لخالد عندما تطلعه على قرارها؟ تصرّفه اللامبالي معها؟ ليس بالأمر الجديد، لماذا تـــود الاعتراض وتطلب الانــفصال عنه الآن بالذات؟

حتماً سيطعن بها ويتهمها بأنها عرفت رجلاً ســـواه، فما كان لخالد أبو شريف أي نظرة بارعة في عالم الفن والأدب، ولا رأي حاكم في مجال الســـياسة، ولا طريقة لائقة في انخراط المجتمعات، حياته مسيّرة فقط نحو جمع المال وممارسة الجنس، وحتماً أي رجل آخر

يتمتع بمواصفات خالد أول ما سيفكر فيه عند طلب زوجته للانفصال هو معاشرة رجل آخر لها.

كارمن عاشت معه تحت سقف منزل واحد ست سنوات، وعرفته قَبلها بسنة، فكانت تحفظ صفاته وطريقة تفكيره صمّ.

أخذت كارمن تهدّأ من قوّة الضغط النفسي الذي وصلت إليه وتبسِّط الأمور، لأنها كانت تدرك أنها ستصل إلى طريقٍ مسدود، فهذه الحالة النفسية تنتابها دائماً كلما عادت من زيارة عائلتها وليست المرّة الأولى.

- "أين كنتِ كارمن؟".

سؤال طرحه عليها خالد فور عودتها إلى المنزل، فأجابته أنها ذهبت للتجوّل في أرجاء المدينة، فلم يعلّق أو يضيف على ذلك أي سؤالٍ آخر، كانت حينها الساعة تشير إلى الثالثة بعد الظهر، وخالد قد عادٍ لتناول غداءه واستراحته الغير مقررة.

لاذت كارمن بالصالون على كنبة مجاورة، والصمت بينهما كان سيّد الجلسة، فأشعل خالد لفافة فاخرة وأخذ يدخنها، دخان اللفافة المتصاعد نحو السقف العالي كان يشبه نيران بيروت في الحرب، وأخذ خالد يسحب وينفخ في الدخان واللفافة تذوب شيئاً فشيئاً، وقلب كارمن يذوب حسرة على نفسها أيضاً لأنها كانت كهذه اللفافة تذوب بين أصابع خالد أبو الشريف يوماً تلو الآخر.

- "سأدخل الغرفة لأرتاح من تعب النهار الطويل، هل تودين مرافقتي والتمدّد في السرير بقربي؟".

بهذا قطع خالد حاجز الصمت، وهنا جال في رأسها سـؤالاٌ لم تبوح له به، ولكنها كانت تتمنى ذلك:

ـ "لا تتذكرني ولا تهتم لمرافقتي سوى في السرير يا خالد؟".

انتظر جوابها فلم تجيب لحدّة الأفكار المهزومة التي كانـــت تطوف حول تفكيرها، فقطع خالد حبل أفكارها مردداً طرح ســـــؤاله مرة أخرى، فأومأت برأســـها نافية متحججة بعملٍ ما ســـــتقوم به، لم يصرّ ولم يحاول إقناعها، فإذا لم تكن تنوي معاًشـــــــرته معاشــرة الأزواج الآن، فإليها بوقتٍ آخر...

ـ "إذاً أيقظيني بعد ساعتين لو سمحتي".

قال كلماته الباردة ونهض عن الكنبة السوداء المخملية متوجهاً إلى غرفة نومه.

كانت كارمن تشـــــعر بجسمها منهمكاً وكأنها كانت تتعرَّض للضرب بأنابيــب من الرصاص طوال اليـوم، فاطمأنت على رودي بأن دخلت إلى غرفته ووجدته يلعب بلعبةٍ أهدته إيـــاها جدته في باريس قبل أسبوعين، وخرجت متوجهة إلىً الحمام، اســتحمَّت وارتدت ملابس مريحة واستلقت على ســـــرير متوسط الحجم في غرفة مخصصة للضيوف.

راحت رزنامة الأيام تسير والحال كما هو، سجن ووحدة وألم، فأطلّ اليوم الأول من شهر تشرين الثاني وكان رودي قد عاد قبل شهر إلى مدرسته وامتزج طقس بيروت الدافئ بالنسمات الباردة.

كانت كارمن على أتم الاستعداد لزيارة دار صديقة قديمة لها عادت من قطر، فنزلت الســــــلالم وركبت سيارتها وانطلقت متوجهة نحو

الرابية، المنطقة الراقية التي يغمر فللها وبيوتها الفخمة الأشـــجار المزروعة بعناية ودقة، وعلى رغم أن الجو الخريـــفي الملبَّد يعطي أي إنسان الشعور بالكآبة، إلا أن كارمن كانت تشـــعر بشعورٍ سعيد للغاية لأنها ستلتقي بصديقة طفولتها ســــــلمى التي لم ترَها منذ سنوات طويلة.

لقد تزوجت سلمى قبل أربع سنوات من رجلٍ قطري، وسافرت قطر ولم تزور لبنان إلا أربع مرات، ثلاث منهم لم تكن فيها كـــــارمن في لبنان.

أيام المراهقة كانت سلمى الصديقة المقرَّبة جداً من كارمن وكانت مخزن أســـرارها، كانت ســـلمى حينها صبية ناعمة وجذابة، ولكن جاذبيتها ونعومتها لا تتفوّق على جاذبية ونعومة كارمن.

وهذا ما كان بسبب لها عائقاً تجاه الفتيان، كانت سلمى كلما تعجب في فتى وتغرق في حبّه كأي مراهقة في ســـنها، يقطع علاقته بها بعد أن يفتن بجمال ورقة كارمن ويحاول التقرّب منها، وما زادتهن تعلقاً ببعض هي مواقف الصدّ التي تقوم بها كارمن من أجل صديقتها المفضلة.

استقبلت سلمى الصديقة القديمة، التي لم تتوقف وســائل الاتصال بينهما، بالتأهيل والتســـهيل والقبلات الســـاخنة وتعابير الاشتياق، وكارمن كانت فعلاً بحاجة للقائها للتفريج عن همّها ومدّها بالمعنويات العالية والثقة في النفس.

ـ "لماذا لم تحضري رودي معك؟ كنت أود أن أراه كيف كبر وأسمع كلماته المقلوبة؟" قالت لها سلمى معاتبة.

- "لأنني أريد أن نجلس براحتنا، فرودي طفل شقي ولن يتركنا نهنأ في الجلسة، ولكن أعدك أنني سأحضره معي في المرّات المقبلة." قالت لها وتابعت سائلة: "كم تنوين المكوث في لبنان؟".

- "إجازتي ستنتهي بعد أسبوع واحد فقط، ولكنني طلبت تمديدها بضعة أيام على حسابي لكي أتمكّن من حضور عيد ميلادك".

قالت ذلك بحماس، فعيد ميلاد كارمن في الحادي عشرة من الشهر الجاري، وسلمى تظن أن كارمن ما زالت كما كانت أيام العزوبية تحتفل بعيد ميلادها وتقيم الحفلات وتدعو الأصدقاء فابتسمت كارمن ابتسامة صفراء وختمت الموضوع.

- "ولكن لماذا؟" سألتها سلمى باهتمام.

- "لم تعد لي هذه التقاليد... فقد تركتها للذين يعيشون على وجه الأرض... فمنذ متى يحتفل الميت بعيد مولده؟ ردت كارمن والحزن يطل من عينيها... وأخذت تفتح قلبها وتشكو لصديقتها أحوالها مع خالد أبو الشريف.

وطال بالصديقتين الحديث إلى أن أخذت كارمن تتحدث عن رجلٍ آخر عرفته لساعات قليلة... إنه نوح هاشم!

- "أتراكِ متيّمة به يا كارمن؟ "سألتها سلمى استناداً لاندفاعها في الحديث عنه ونعته بصفات الرجل الكامل.

- "بربِّك يا سلمى... أهذا سؤال تطرحينه على صديقتك؟ كيف لقلبي أن يغرق في الحب وصاحبته متزوجة وأمّ لطفل صغير؟..." أجابتها معاتبة".

- "القلب لا يعرف التمييز... وكلامك بهذه الطريقة عن نوح مدَّني بالجرأة على السؤال"

-"أنا لم أعرف نوح سوى ساعات قليلة فقط... ولم يتصل بي أو يتواصل معي طيلة هذه الفترة".

وما كانت سوى لحظات إلا ورنّ جرس هاتف كارمن، فتحت كارمن حقيبتها واستلت جهاز هاتفها الخليوي وألقت نظرة على شاشته، وارتعشت يدها عندما وجدت على الشاشة اسم نوح هاشم.

فظلت جافلة تنظر إلى الشاشة من دون أن تجيب، وجرس الهاتف يرنّ.

- "ما بك؟ "سألتها سلمى باهتمام، "أهو خالد؟.. ألهذا الحد يجعلك تتوترين عندما يتصل بك؟".

- "قد لا تصدقين... إنه نوح هاشم".

قالت لها والذهول يخفي نصف صوتها، ثم كبست على الزر الذي يجيب وردت على نوح.

- "دنياي كالليل القائم بالسواد... وحياتي المليئة بالناس ليس لي بينهم شخص أشكو إليه وحدتي وأُفرِّج له عن همومي سواكِ..
آسف يا كارمن على الإزعاج ولكني حقاً كنت بحاجة لأتصل واقول لكِ هذا وأقفل .. "

كان أول ما قاله نوح لكارمن.

فماذا يقول هذا الغريب لي، فهو يبالغ في التعبير لأنني حتماً لا أعني له، أو على الأقل لا أعني له بهذا القدر الذي يجعله يتصل من فرنسا إلى بيروت ليقوله.

تساءلت كارمن في نفسها وظلت صامتة مرتبكة لا تعرف بما يجب عليها قوله.

ـ " كارمن أتسمعيني؟... أجل أنتِ تسمعيني... فصوت نفسك في أذني يسير كالمياه العذبة التي تشبه قلبك الصافي... هيا أقفلي الخط وأنهي المكالمة، وأنا أعدك من هذه اللحظة أنني لن أتجرأ بعد ذلك على الاتصال بك".

ـ "أنا أسمعك يا نوح طبعاً... ولكنني صامتة بسبب التعب من تغيير الطقس... فأنا مصابة بحساسية فصل الخريف... كيف حالك؟"، سألته.

ـ "الآن أنا بخير... حقاً أصبحت بخير... اعتذر عن عدم سؤالي واتصالي بك طوال هذه الفترة... كنت دائم التردد في الاتصال، لا أعلم لماذا، فكنت كلما أخذت سماعة الهاتف لأطلب رقمك أشعر بشي يمنعني... ولكنك كنت دائماً في خاطري... رائحة العطر الهندي الذي يعبق سيارتي يذكرني يومياً بك... وصوت فيروز الملائكي بات صوتك الذي أسمعه كل يوم".

أخبرها كل ذلك ولم يكن يكذب أو يجامل في كلامه، نبرة صوته وطريقة نطقه للحروف أكدت لكارمن صدق مشاعره، ولكن أي مشاعر؟ مشاعر الصداقة؟ وأي صداقة بين رجل متزوج وامرأة متزوجة تصل إلى تعابير كهذه؟

هل نوح متيّم بها؟ فالقلب لا يعرف التمييز. عبارة رددتها في سرّها بعد أن سـمعتها قبل دقيقة واحدة من سـلمى قبل اتصال نوح المفاجئ.

اسـتغرق اتصاله ثلاثة وعشرون دقيقة أخذ فيهم نوح يحدثها عن أحواله ويعرف أخبارها وحكاياتها الصغيرة والكبيرة، وسـلمى جالسة بقربها تسـتمع صامتة تتراقص الأسئلة برأسها، وكأنهم مجموعة أصدقاء يرقصون بجنون في ملهاً ليلي مساء يوم السـبت في شارع الجمّيزة.

Chapter 3

الهاتف

اتصال نوح هاشم على حين غفلة، غيَّر الكثير في حياتها فيما بعد، لأنه كان مفتاحاً لصداقة متينة بينهما.

لقد اعتادا الحديث على الهاتف ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً، ما كانت تخبر خالد عنه، ولا تخبر أحداً مما تعرفهم سوى صديقتها سلمى، التي أصرّت على الاحتفال بعيد ميلادها بحفلة عشاء صغيرة أقامتها في منزلها في الرابية، ودعت إليها عدداً صغيراً من الأصدقاء، وطبعاً خالد لم يأتِ بحجة ترك الصديقات تأخذن راحتهن في الأمسية، وعايد كارمن بخاتمٍ مرصَّع ببضعة حبّات ماسية.

كانت كارمن على رغم عدم اطلاع أي مخلوق عن علاقتها بنوح وخاصة زوجها، تؤكد لنفسها ولنوح أنه ليس من خطب أو سريّة في اتصالهما.

لقد كانت التسميات التي يطلقانها هي ونوح عن الأشياء مهذبة، لبقة، مختصرة وملائمة، لقد كانا أصدقاء بالفعل، إلا أن نوح مع ذلك يدرك ومنذ اللقاء الباريسي الأول أن ما يشعر به نحوها كان أكبر وأعمق مما أمكنه أن يخبرها أو يخبر أي شخص آخر عنه.

هدية خالد في عيد ميلادها كانت هدية عادية جداً على رغم ارتفاع ثمنها، لكن لنوح كان له هدية مميزة فاقت توقعاتها.

فكارمن صباح يوم الحادي عشر من شهر تشرين الثاني وهو يوم مولدها، تلقت طرداً كبيرة وصل إلى منزلها يحتوي على أربع هدايا.

الأولى كتاب إميل زولا، وكان سبق له وعلم أنها من المعجبين بكتابات وقصص هذا الكاتب الفرنسي، وقرص موسيقي يحتوي على أجمل أغنيات فيروز، "بكتب اسمك"، "شايف البحر"، "طلعلي

البكي"، "عندي ثقة فيك"، "كيفك إنت"، "وحدن" وغيرها من أروع ما غنت ســـــفيرة لبنان إلى النجوم ، الهدية الثالثة سلسلة وقطعة من الذهب الأبيض من تصميم المصمّم الفرنســـــي العالمي جون لوك مارتـــان، أما الهديـة الرابعة فهي زجاجـة من العطر الهنـدي الذي سيذكرها دوماً باللقاء الأول.

أخذت كارمن تفتح الهدايا بفرح واهتمام كطفلة صغيرة في ليلة الميلاد ـ يا لهذا الرجل الذي بات يدخل البهجة والســـرور إلى حياتها ـ فأين كان منذ زمن؟ فقد كانت قبل ذلك تشعر وكأنها وردة ذابلة مهملة في إناءٍ ثمين لا يحتوي على الماء، صداقتها بنوح أخذت تعيد إلى جسمها الحياة ومكالماته تعززها وتقويها.
وباستثناء ابنها رودي وصديقتها سلمى ما كان لدى كارمن أحد تتحدث إليه.

لقد كان صوت نوح أحياناً، نافذة اتصالها الوحيد مع راشد آخر طوال يومها، فيما عدا مربية رودي والخدم. وبدا أنه الشخص الوحيد في عالمها الذي كان مهتماً بها حقاً وبصدق، كان خالد، إن فعل فنادراً ما يسألها عن أحوالها. أما الساعات التي كانت تقضيها في الحديث إلى نوح فقد فتحت النوافذ إلى عالم أوسع وأغنى، كانت تلك الساعات كنسمة هواء عليل بالنسبة إلى كارمن، وحبل نجاة تلجأ إليه في لياليها الحالكة، ومن خلال أحاديثهما العديدة المتبادلة معاً صار نوح صديقها الحميم، وغدا خالد هو الغريب في حياتها.

لقد حاولت أن تشرح ذلك لنوح مرة في إحدى مكالماتها الهاتفية في الصباح الباكر. كان رودي مريضاً لأيام عديدة بسبب جرثومة التقتها من أحد أصدقائه في المدرسة، وكانت تشعر انها منهارة

ومنهكة وآيلة للسقوط، وكانت مكتئبة بسبب برودة تعامل خالد معها في الليلة الفائتة. كان صوتها يتقطَّع من البكاء، والدموع تترقرق من عينيها عندما راحت تحكي عن ذلك لنوح الذي هَالَهُ قســـــــوة قلب خالد نحو كارمن وابنها الصغير.

إنّ المشـــــــاعر التي يعبّر عنها كل من نوح وكارمن للآخر كانت لا تتعدّى الصداقة رســمياً. لم تعترف كارمن له أو لنفسـها بأن هناك أكثر من مجرد إعجاب وارتياح واستمتاع بفن الحوار المفقود. ولكن نوح قد لاحظ على نفســـــــه مع الوقت أنه يصاب بالقلق عندما لا تتصل به، وأنه كان يشـــــــتاق إليها عندما كانت لا تســـتطيع تلقي مكالماته بســــــــبب مرافقتها لخالد إلى مكان ما. لقد كان قلقه واشتياقه أكبر من أن يستطيع الإفصاح عنه أو الإقرار به، لقد صار وجودها راسخاً في حياته وعليه كان يستند.

ـ "أين ستحتفلين ليلة رأس السنة؟" سألها نوح في إحدى المكالمات الهاتفية في بداية الأسبوع الأخير للسنة.

ـ "لن أحتفل يا عزيزي" أجابت بصوت يمتزج مع الملل وتابعت قائلة "ولكنني ربما سألبي وخالد دعوة أحد أصدقائه، سيكون ذلك مملاً للغاية... وأنت؟" سألته من دون أن تكون تعرف ما وراء سؤاله، فنوح كان ينوي زيارة لبنان لقضاء ليلة رأس السنة، وعندما علمت بذلك لمعت عيناها فرحاً.

– "قد لا أصدق أنك آتٍ إلى لبنان "

– "يجب أن أراك... لا أريد أن أكون في بلد أنتِ موجودة فيه ولا أتحدث معك سوى على الهاتف" قال لها محذراً، وكان الوقت آنذاك قد تجاوز منتصف الليل وخالد لم يعد بعد.

ضحكت كارمن ضحكة طويلة وطمأنته بجوابها: "ما عليك أنت إلا أن تركب الطائرة وتأتي بيروت وتدع جميع الأمور على صديقتك كارمن".

وبعد دقائق طويلة أنهت كارمن المكالمة الهاتفية واستلقت ممددة على السرير تفكر بكلام نوح حول زيارته إلى لبنان، وإذ بخالد يدخل وشرارة الغضب في عيناه.

- "مع من كنت تتحدثين؟" سألها بنبرة استجواب وتهديد، وكانت نبرة صوته ترتجف، فبنظره زوجته تقوم بخيانته مع رجل آخر.

- "صديق لي يعيش في فرنسا" أجابت بهدوء ولاحظت في عينيه ما ينذر بالسوء. فقلقت، إذ كانت تحاول أن تبقي الأمور هادئة بينهما، ولكنها لم تستطع ان تمنعه من قول ما كان يريد قوله.

- "ومنذ متى تتخذين أصدقاء رجالاً؟ ولنفترض أنه صديق، أي صديق يتحدث مع امرأة متزوجة وقتاً طويلاً وفي ساعة متأخرة من الليل؟".

شعرت كارمن بكلمات خالد كسكين تنغرس في صدرها، فنهضت من السرير ووقفت لمواجهته.

-" أتشكّ بي يا خالد؟ وهل وصل بك الأمر أن تقف وراء الباب وتسرق السمع؟ هيا... قل لي ماذا سمعت من كلامٍ خارج الأخلاق؟ قل لي ما سمعته عن لساني يجعلك تغرس سمعتي في الوحل؟ هيا ".

رفعت كارمن نبرة صوتها وهي تقول ذلك، وكانت قلما تفعل ذلك.

- "لا وقت لي للجدل" قال رافعاً يده في وجهها وكأنه ينوي قطع الجدل بينهما واسترسل قائلاً:

- "اسمعي... فما حدث وما يحدث من وراء ظهري لا يروق لي البتّة... وزوجك المتحجر القلب كما قلتي له سيجعلك تدفعين الثمن غالياً على ذلك... لقد سمعتك تصفين حياتك بالسجن... وبما أن السجن هو ما تطلقينه على حياتك معي... فليكن سجناً حقيقياً".

صفقت كارمن باب الخزانة بعنف وواجهته بنظرة صارمة، ولم تنطق بكلمة... فأبعدها عن طريقه وسحب شريط الهاتف وقطعه بعنف، وتلفت يميناً ويساراً باحثاً عن جهازها الخليوي فوجده على السرير... فصرخت، وكأن صرختها كانت ناتجة عن ألم جثماني حاد

- " ماذا تفعل خالد؟".

-" ما يترتَّب على أي زوجٍ يقع في بئر الخيانة"، أجابها من دون أن ينظر إليها، وأخذ هاتفها المحمول وخرج من الغرفة غاضباً ثائراً كحيوانٍ بري.

ليلة سوداء حلَّت على كارمن، لم يغمض لها جفن، أخذت تتقلَّب طوال ساعاتها على الشوك المزروع فوق الوسادة وشراشف السرير.

ماذا سيحل بها وإلى أين سيصل خالد برد فعله هذا؟ هل سيسجنها بين حيطان المنزل ولا يسمح لها بالتواصل مع أحد؟ نعم فالأمر ليس صعباً عليه البتّة.

دخلت أهداب الشمس الأولى من نافذة الغرفة وكارمن ما تزال مستيقظة متألمة، فخرجت حافية من الغرفة وأخذت تسير في المنزل الكبير تفكر في مصيرها المجهول مع خالد.

وخلال انتقالها من غرفة إلى أخرى، اعترض خالد طريقها ووقف بمواجهةٍ معها قائلاً ببرودة أعصاب وابتسامة الخبث على وجهه.

- "صباح الخير حبيبتي".

على ماذا ينوي خالد؟ سألت كارمن نفسها هذا السؤال من دون أن تجيبه بحرف، فمد يده مداعباً شعرها فابتعدت خطوة إلى الوراء، فاستطرد يخبرها عن قراره

- "سنسافر الليلة لقضاء عطلة نهاية السنة. سنمرح كثيراً ونستمتع بوقتنا ".

لم تتوقع موقف خالد، فقد كان رد فعله فائق العادة وغريب عن المألوف، أهذا زوجها؟ لبرهة شكَّت كارمن بالأمر...

- "ماذا تريد يا خالد؟" ردّت والذهول يعصف بها، فضحك ضحكة ماكرة عالية وكأنه مشعوذاً حقيراً، ورقَّص حاجبه الأيسر مجيباً:
-" لن أدعك تفسدين المفاجأة التي أعددتها لك... ادخلي غرفتك واستعدّي ورودي الصغير للسفر... هيّا يا عمري... هيّا... فالعائلة السعيدة ستقضي عطلة جميلة... هيّا".

وما كانت إلا ساعات وخالد قد حجز تذاكر السفر وعاد إلى البيت لاصطحابها حتى لو استدعى الأمر إلى القوة، كي ينفِّذ بداية انتقامه من كارمن.

رفع نوح رأســـه عن وسادة الأمل واغتسل بماءٍ دافئة وارتدى كعادته ملابس أنيقة، ســـرَّح شعره وتعطَّر بعطرٍ باريسيٍّ، وخرج من المنزل قاصداً بعض المتاجر الفرنسية لشراء الهدايا لكارمن ورودي الذي يتشوق لرؤيته... فكارمن كانت دائماً تخبره أنه صورة عنها.

لم يتصل بها طوال اليوم بسبب انشغاله وانهماكه بمعاملات السفر وشراء الهدايا والأغراض التي سيحتاجها خلال إقامته القصيرة في لبنان، وما كان يدرك ان كارمن أُبعدت عنه، ربما إلى الأبد!

- "إلى أين سنسافر؟" سؤال طرحته كارمن فور دخول خالد عليها، وأضافت قائلة وقد بدأت متألمة: "لماذا تفعل بي هكذا؟".

ابتسم خالد بوجهها ابتسامة ربما تكون ماكرة مجيباً على سؤالها الأخير: "لابد يا كارمن تظنين أنه ليس لدي قلب على الإطلاق".

نظرت إليه في حزنٍ صامت والدموع في عينيها: "لا خالد، أعلم أن لديك قلباً، ولكنه ليس مكرّساً لي ومنذ زمن بعيد".

- "مشاعرك خاطئة يا جميلتي، فأنا أفيض حباً بك وأنتِ تدركين ذلك جيداً".

- "وما هو مفهومك للحب؟ هل يقتصر الحب في قاموسك على مطارحتك لي الجنس في السرير؟".

إنها المرة الأولى التي تحدثه كارمن بهذه الصراحة: "لا يا خالد، الحب هو اهتمام الشريك بشريكه في الدرجة الأولى... فأنا أشعر منذ بداية زواجنا أنني قطعة أثاث مزروعة في منزلك، ما عاد ممكناً الاختباء خلف الكلمات... لم يتبقَ لدينا شيء، كل ما بيننا هو

رودي، وإذا انفصلنا سيعيش فترة معي وفترة معك، لن أحرمك منه ولن تحرمني من رؤيته، هو ما زال صغيراً وسيتعايش مع الوضع".

وتابعت: "لن نكون أول زوجان ينفصلان، خالد أنا أريد أن أضع حدّاً لزواجنا الآن، إذا ما تريثنا أكثر أو استمرينا في القيام بما نفعله، سوف ننتهي إلى أن نكره بعضنا البعض، ولا أريد أن يحدث ذلك لنا أو لرودي".

واستكملت كلامها: "إذا ما أنهينا الأمر الآن فإننا سنبقى صديقين على الدوام".

كلام كارمن كان كالسكين الذي يمزّق أحشاء رجوليته وأنانيته. فبادلها بنظرةٍ باردة من دون أن ينطق بحرف. جلس على كنبة قريبة منه حيث كان يقف وأشعل لفافة وأخذ يدخنها، أما هي فظلت واقفة تنتظر رده أو ردّ فعل منه، وعمّ الصمت بينهما وما كان مسموعاً سوى صوت علاّقة المفاتيح التي كان يحملها ويلوح بها، إلا إن عاد والتفت إليها قائلاً بهدوء: "هذا بأحلامك، لن أسمح لك أن تجعلي مكانتي الاجتماعية تتأثر بسبب الحماقات التي تتفوهين بها".

"إنها ليست حماقات"، وكانت تريد أن تضيف توضيحاً لوجهة نظرها فقاطعها قائلاً: "القرار أخذته وأنا من يتخذ القرارات هنا، سنسافر ولن أتراجع، وإذا لم يرضيك الأمر فسنسافر معاً وبالقوة".

الدموع التي كانت تترقرق في عينيها انهمرت سريعاً على وجنتيها، فانحنت ورمت بنفسها بصمتٍ على الكنبة المجاورة لها، ساندة رأسها بكفّها الذي كان يرتجفً من ضيق الحال.

وما كانت إلا ساعات وطار خالد بعائلته إلى تونس، وانصرف الخدم بإجازة طويلة وساد الصمت أنحاء المنزل الكبير في وسط المدينة.

Chapter 4

ليلة رأس السنة

خالد أبو الشريف على غضب وحنق وقلق وجنون، لم يكن السبب هو أنه اكتشف أن لزوجته صديق، بل لأنه شعر بالإهانة عندما سمعها تتحدث مع هذا الصديق عن صفاته السيئة وتصرفاته المزعجة.

لذا قرر تنفيذ هذا الانتقام...

- "أريد التحدث مع والدي" قالت له فور وصولها الشقة المفروشة الذي استأجرها لخالد أحد أصدقائه في تونس.

فارتسمت على شفتيه ابتسامة هزء وسخرية ليقول: "إننا الآن في شهر عسل جديد، وشهر العسل يكون بالعادة بعيداً عن الأهل والأصدقاء".

قالت: "ماذا ستكسب من تصرفك هذا؟".

فاتسعت الابتسامة الهازئة على شفتي خالد وتمتم بمكر: "سأكسب زوجة هنيّة إلى جانبي".

- "أنتَ بدأت تخسرني يا خالد، أنت بتصرفك هذا سترغمني على كرهك والنفور منك".

لقد كانت لا تزال على ثقة بأنها مهما كان الأمر مؤلماً لأبنها فمن الأفضل أن ينفصلا عن بعضهما البعض.

ووجم خالد وزوجته تلقي في أذنيه كلامها وتلاشت الابتسامة الهادئة عن شفتيه، وقد أدرك أن الأمر لا يحتمل الهزء والسخرية.

- "من حقي أن أكلّم أفراد عائلتي، أنا لست بامرأة مقطوعة التقطتها من الشارع. لم أخطئ في حقك ولم أطعن بشرفك"، بدت كارمن جادة وصارمة في كلامها. راح خالد يفكر بصمت وقلق ووجوم، فكان خالد يهاب السيد توفيق الأسعد والد كارمن، فهو من مدّه بالمال لتأسيس نفسه، وفضله كبير جداً عليه، فهل يسمح لها بالحديث معه؟ فإن فعل واتطلع السيد توفيق على ما يحدث، حتماً سيقف إلى جانب ابنته ضده.

ولم يطل صمت أبو الشريف، فعاد إلى الكلام ليقول: "ماذا ستقولين لوالدك؟ زوجي أراد قضاء عطلة رأس السنة معي في تونس وأنا لا أريد لأنني قد وعدت رجلاً آخر بقضاء هذه العطلة معه في بيروت؟". قال ذلك وراح يدخن لفافة وشرارة الغضب تشعّ من وجهه.

- "هذا الرجل الذي تتحدث عنه ليس سوى صديق". أجابته مدافعة عن شرفها ونزاهتها.

فعاد وابتسم بهزء وسخرية من جديد في وجهها بعد أن طرد دخان اللفافة من فمه، وقال: "لقد قرأت رسائله الموجودة على هاتفك، أي نوع من الصداقة هذه؟ وأي صديقٍ يفرط في وصف مشاعره لامرأة متزوجة؟".

خالد على حق، لا يجب عليها أن تدّخل والدها في مصيبتها، لأن خالد سيفوز بإقناعه، ومها يكن، لن يستطيع أحد أن يتفهم سبب العلاقة التي تجمعها بنوح، بهذا فكرت كارمن وقطعت الجدال واستدارت ودخلت غرفة رودي، وطبعاً ستشاركه الغرفة، فبعد ما حدث بينهما واتخادها لقرار الانفصال، لن تشارك خالد بعد اليوم غرفة نوم واحدة وسرير واحد.

ضجَّت شوارع بيروت بزحمة السير وامتلأت باللوحات الإعلانية وزينة عيد رأس السنة، جميع الناس قصدت الأسواق التجارية لشراء الملابس والمأكولات والحاجات لأجل سهرة رأس السنة الميلادية، وهناك في مطار بيروت الدولي، حطَّت الطائرة الفرنسية وهبط منها نوح هاشم الذي يحمل أمل لقائه بكارمن الأسعد. لم يخطر بباله البتّة أن كارمن ممكن أن تكون قد تركت لبنان وسافرت تونس.

كان نوح قلقاً لعدم تمكنه من الاتصال بها قبل سفره من فرنسا وزاد قلقه عندما ظلّ هاتفها مقفلاً بعد وصوله، فقد حاول الاتصال بها تكراراً، وحاول أيضاً الاتصال على رقم المنزل، فاتصل بصديقه الروائي الفرنسي أوليفيه سورون وطلب منه أن يأتي له من أحد أفراد عائلتها في فرنسا بعنوان منزلها في بيروت، وما كانت إلا ساعات قليلة وحصل نوح على العنوان: "هل يجوز أن أذهب إلى منزلها؟ ربما يكون زوجها هناك"، سؤال طرحه على نفسه، ولكن شوقه إليها واضطرابه عليها جعلاه يذهب إلى منزلها.

-" ليذهب جميعهم إلى الجحيم، فإذا كان خالد في المنزل سأقول له إنني من قبل صديقة لكارمن أرسلت لها هذه الهدايا"، قال ذلك خلال ركوبه سيارة التاكسي متوجهاً نحو منزلها، حاملاً بيده الهدايا.

قرع جرس الباب وانتظر، ثم عاود قرع الجرس وانتظر، لقد طال انتظاره.

- "أين هي يا ترى؟".

وإذ بنوح يلتقي بأحد المارة أمام منزلها استوقفه وسأله: "لو سمحت، هل هذا منزل السيد خالد أبو الشريف؟".

- "ربما ولكن لست متأكداً من ذلك، تستطيع أن تسأل صاحب هذا المتجر"، أجابه الرجل وانصرف. فتوجه نوح كالصاروخ إلى صاحب المحل التجاري ودخل عليه بابتسامة لبقة وسأله عن السيد خالد أبو الشريف، وقال له إنه قد وصل من فرنسا حاملاً غرض لزوجته من قبل عائلتها. فصعق وشعر بخيبة أمل كبيرة عندما أخبره صاحب المتجر أن خالد أبو الشريف قصد متجره لشراء الأغراض وأخبره أنه مسافر برفقة عائلته الى الخارج.

حاول نوح أن يعرف منه اسم البلد الذي سافر إليه، ولكن صاحب المحل التجاري لم يكن يعرف، فشكره وخرج.

لماذا لم تعلمني بذلك؟ فحتى لو كان سفرها مفاجئاً كان من السهل عليها أن ترسل على الأقل رسالة قصيرة على الهاتف. لماذا فعلت كارمن هكذا؟ أخذ نوح يتساءّل بعد أن خرج من المتجر وراح يسير في الشارع، كان قلقاً جداً على كارمن، وخاف أن يكون قد أصابها مكروه.

زحمة الأفكار السوداء التي جالت في رأسه جعلته لا ينتبه إلى سيارة مسرعة كانت تمر في الشارع خلال قطعه للطريق، وما كان إلا ثوانٍ وسقط نوح أرضاً إثر ارتطام السيارة به، فما كان بإمكان السائق أبداً إيقاف السيارة. لم يلتقط نوح أنفاسه، ولم يعلم ما حدث له، خلال ثوانٍ كانت السيارة قد جرَّت جسده إلى منتصف

الشارع وفقد الوعي، وما عاد قميصه أبيضاً بل صار أحمر اللون غارقاً بالدم.

كان هناك جرحان عميقان على جانب وجه نوح وجسده مهشَّم.

كانت عيناه مفتوحتين وبدا ميتاً، ونظراً إلى كمية دمه الذي لطخ كل ما حوله كان من المستبعد أن يفكر أحداً بأن هذا الرجل قد ينجو.

عندئذ علت الأصوات على مبعدة، وارتفع صوت نفير أبواق السياراًت وتجمهر الناس ومن بينهم صاحب المتجر الذي كان قد قصده نوح ليسأل عن خالد أبو الشريف.

- "لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم" صاح صاحب المتجر وقال للناس: "منذ لحظات كان هذا الرجل في متجري".

- "هل تعرفه؟" سأله أحدهم فأجاب: "نعم. إنه من أقرباء جارنا السيد خالد أبو الشريف. هيا لنطلب الإسعاف".

وصلت سيارة الإســـعاف ونقلته إلى مســـتشفى الجامعة الأميركية، ووصلت معها سيارة الشرطة للتحقيق في الحادث. فأوقف صاحب الســيارة الذي دهسه وحوّل إلى التحقيق. أما صاحب المتجر إتصل بأحد من أقارب جارهم السيد خالد أبو الشريف وأعطاهم رقمه اللبناني.

فكان رقم خالد يعمل دولياً. وما هي إلا ساعة واتصلوا بخالد وأعلموه بتفاصيل الحادث.

كان خالد أثناء ذلك خارج المنزل.

- "وماذا عن حالته الصحية الآن؟ هل سيكون على ما يرام؟" سأل خالد والدهشة تسيطر عليه!

- "لا نعلم، فهو ما زال لغاية الآن على قيد الحياة. ويبدو أنه تعرض لإصابات بالغة جداً".

فعاود خالد طرح السؤال ليأخذ توضيح حول حالة نوح فأجاب رجل الشرطة: "حسب التقرير الذي وصلني يا سيدي أنه لا يزال غائباً عن الوعي وحالته خطيرة أيضاً".

لقد خطر لخالد وهو يصغي إليه، احتمال أن يموت من دون أن يتمكن من معرفة حقيقة وصول هذا الرجل إلى منزله، فهل وصلت به الوقاحة ليزورها في المنزل؟

كان هناك ألف احتمال وسؤال يدور في رأسه. وما كان بإمكانه معرفة أي جواب على أي منها، وخاصةً إذا لم ينجو من الحادثة.

فعاد مسرعاً إلى المنزل ووقف بمواجهة كارمن، هل يطلعها على ما حدث ويزيد من جنونها وتوترها؟ لا، ففرصة الانتقام وصلت إليه ولن يضيعها من يده.

- "إن كنتِ تودين العودة في صباح الغد إلى بيروت، عليكِ أن تستعدي للاحتفال بسهرة عيد رأس السنة".

قال ذلك بلهجة رسمية وقد بدا غير مرتاح .

كارمن كانت مستعدة لفعل أي شيء مقابل العودة.

فأجابته: "إليك ما تريد يا خالد".

- "ألهذا الحد أنت متشوقة لرؤيته؟"، سألها ببرودة أعصاب ومكر، لقد كان واضحاً أنهً كان مستاءً للغاية.

- "بل أنا متشوقة للخروج من سجنك يا خالد، وبأسرع وقتٍ ممكن".

أجابته بجرأة من دون أن تحجب عيناها عنه. فضحك ضحكة هزء وجلس.

- "سهرة رأس السنة ستكون كالتالي: سترتدين فستاناً جميلاً، تسرحين شعرك وتتبرجين. تعدين لي العشاء والمشروب، وتجالسيني على شرفة هذا المنزل لتطلعيني على كل شيء من دون كذب أو نفاق، أريد أن أعرف تفاصيل علاقتك بهذا الرجل، لن تنقطعي عن الحديث عنه طوال السهرة إلى أن يغلبني النعاس، وبعدها يخلد كل منا للنوم وعند العاشرة صباحاً نتوجه للمطار ونعود إلى بيروت".

- "وستعدني أنك ستباشر في معاملات الطلاق فور وصولنا إلى لبنان؟"، سألته وكأنها تستقصي عن نجاتها من السجن، ولكن خالد هزّ رأسه دلالة عدم اتخاذ قراره.

- "لا أريد استباق الأمور انتظري إلى أن نعود إلى بيروت"، قال خالد واستدار وخرج من المنزل ليحجز تذاكر العودة.

الليل أسود الجبين يلمع بالمطر المنهمر بغزارة، والعواصف العاتية الهوجاء تعربد وتولول وترسل صفيراً مخيفاً يذهب صداه إلى البعيد، والبرد قارسٌ لاسع يزيد في وحشة الليل وكآبة الظلام.

وهناك على شرفة المنزل التونسي جلس خالد أبو شريف وزوجته كارمن ليقضيا سهرة رأس السنة الغريبة.

وبينما أخذت الزوجة تصب كأس المشروب لزوجها بناءً على طلبه، سألها بصيغة الأمر: "هيا كارمن، فأنا كلّي آذان صاغية لك لتروي لي قصتك مع نوح هاشم، لابد أنها ستكون قصة مثيرة". ومن دون خوف أو تردد راحت تقص على زوجها حكايتها مع نوح، أخبرته عن حفلة توقيع كتاب الصديق أوليفيه سورون، وكيف التقت بنوح وكيف اصطحبها إلى مطعم ليسبادون (Lespadon) وبعد سفرها انقطع الاتصال بينهما لأيامٍ وأسابيع طويلة إلى أن عاود الاتصال بها وولدت بينهما الصداقة، وأخذت تنمو من خلال المكالمات الهاتفية المتكررة يوماً بعد يوم.

كان يصغي إليها وشرارة الغيرة تعتصر قلبه وتنهش في روحه، كانت كارمن تتحدث من دون حرج لأنها ومن وجهة نظرها لم تخطئ ولم تقم بأي عملٍ مشين يسيء إلى سمعتها كسيدة متزوجة. وأوضحت له ذلك خلال سردها للأمور. وقالت له بعد ذلك: "لقد كنت يا خالد بحاجة لصديق أكلمه وأرمي بحمولي عليه، وإذا كنت ترى أن صداقتي بنوح غلطة ارتكبتها فأنت من عليه أن يتحمَّل مسؤولية هذا الخطأ، لأنك وببساطة لم تكن قريباً مني فكان عليك، ومنذ زمن طويل، أن تملأ الفراغ الذي يرافق أيامي الطويلة التي تمرّ بتثاقل".

كانت كارمن تنتظر من خالد بعد حديثها الطويل أن يبادلها نظرة عطف وتفاهم. ولكن خالد ضحك ضحكة سوداء وهزء: "أتظنين أنني مراهق يصدِّق ما سردته في قصصٍ بلهاء؟"، قال هذا، وعلى رغم أنه كان يعرف أكثر من أي شخص آخر درجة الوحدة التي

تعيش زوجته فيها, وذلك بفضله هو فشرقيته حجبت هذه الحقيقة عن تفكيره.

- "بعد أن حكيت لك قصتي بكل صدق ووضوح، وفتحت لك قلبي، وأخرجت أمامك كل ما في داخله تقول لي هذا؟، هل أنا الآن بنظرك امرأة خلعت رداء العفة وارتكبت المعاصي؟، خالد، لقد سلَّمت أمري لله، افعل بي ما شئت"، قالت كارمن والدموع تغمر عينيها، وكانت الساعة آنذاك تشير إلى الثالثة صباحاً، تركته ودخلت الغرفة وتمددت بالقرب من رودي وغمرته متألمة باكية.

ظلَّ خالد على الشرفة يدخّن سابحاً بأفكاره، متأملاً منظر المطر الذي كان ينهمر بغزارة خلف الزجاج الذي يلف الشرفة.

وقف يحدّث نفسه ويقول: "وما بالي أسعى إلى شقائي؟، وهل يستحق الأمر كل هذا العناء والتحرق على امرأة ساقطة خانتني مع رجل آخر؟ أأنا الرجل الأول الذي أصابه على يد زوجته هذا البلاء؟".

واسترسل: "أأنا الرجل الأخير الذي مرغت زوجته شرفه بالأوحال؟ كلا، ثم كلا، فهناك كثيرون غيري امتحنوا بمثل ما امتحنت فماذا يليق أن أفعل؟ هذا هو السؤال الذي يتطلب الجواب السريع الحاسم".

وتململ خالد ثم شخص من الشرفة وأخذ يتنقَّل من غرفة إلى غرفة، يفكر، يتخيَّل، يتذكر ويقرّر.

إنه ينوي الانتقام، لقد حسم هذا الآن، لن يفسح المجال لكارمن، لن يدعها تنعم بحرية واستقلال.

بعد ساعات سيعود إلى بيروت وستكون حياة نوح بين يديه، فإذا مات إثر الحادث سيكون قد ارتاح، وإذا لم يمت فسيلقنه درساً لن ينساه طوال حياته.

سيحتفظ بكارمن زوجة له بالاسم، ويبذل ما في طاقته لإبعادها عن عشيقها. ثم يسدل ستاراً من الكتمان على ما حدث حتى لا تنتشر الفضيحة فيسمع بها القاصي والداني.

Chapter 5

شروع بالقتل

عاد خالد أبو الشريف وعائلته إلى بيروت في الصباح المبكر.

خالد عزم على المضي بقراره، وظلّ هذا القرار مجهولاً بالنسبة إلى كارمن التي أخذ اليأس يتسرَّب إلى صدرها، وأخذت أنفاسها تضيق عندما وصلت منزلها في وسط بيروت ورأت الأبواب قد أوصدت عليها، فممنوع عليها المغادرة أو استعمال الهاتف.

حتى الخدم لن يعاودوا العمل في المنزل!

أي حياةٍ هذه وأي سجن هي فيه الآن؟

تركها خالد وحيدة وذليلة مع ابنها رودي وانصرف إلى مستشفى الجامعة الأميركية المتفرعة من شارع الحمراء في بيروت.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهراً، وكان الطبيب قد غادر للتو عندما وصل خالد. دخل إلى جناح العناية المشدّدة بهدوء وتحدث إلى موظف استقبال يجلس إلى مكتبه، وادعى أنه من أقرباء نوح هاشم. رفع الموظف نظره إليه، وأومأ برأسه وطلب من ممرضة عابرة أن تقوده إلى غرفة نوح. تبعها خالد من دون أن ينطق بكلمة واحدة وعليه علامات الكآبة. كان يتوقع أن يراه يبدو مريضاً جداً. ولكن ما رآه كان مختلفاً عن توقعاته. لقد بدا له تقريباً وكأنه لفافة من اللحم غير واضح المعالم، حيث كان هناك ضمادات وأسلاك وأنابيب وشاشات مراقبة في كل مكان، وحتى رأسه كان ملفوفاً بالضمادات البيضاء ووجهه كان شاحباً كالأموات ومحاطاً بالضمادات.

لقد كان نوح جسداً متكسراً ليس إلا. وكان خالد ينظر إلى غريمه وكأنه يحدق في ملاك الموت.

- "كيف حاله؟ هل سيتمكن من العيش؟"، سأل خالد ممرضة كانت تتحقق من شاشات المراقبة وتفحص بؤبؤ عينيه، كما تفعل ذلك بشكل متواصل.

- "لا يمكننا التكهن الآن بما سيحدث. فمن السابق لأوانه أن تعرف الآن ما ستؤول إليه حالته"، أجابته الممرضة بصوتٍ خافت حرصاً على سلامة المريض.

- "هل ثمة طبيب هنا أستطيع التحدث إليه؟" سألها خالد من دون أن تبدو عليه أي علامات عاطفية.

- "لقد غادر الطبيب المسؤول عنه لتوه. ولكنني سأُعلم الجراح بوجودك"، قالت الممرضة ذلك وهي تمر بجانبه خارجة من الغرفة.

لم تشعر الممرضة بالراحة بسبب موقف خالد إذ كانت رؤيتها لنوح تمزّق قلبها. لقد كان نوح على رغم إصابته رجلاً وسيماً وشاباً للغاية، ولكن هذا الرجل الذي وصل لرؤية قريبه بدا فاقداً الإحساس تماماً. ولم يحصل أبداً إن التقت بشخصٍ على مثل درجة البرودة التي عليها خالد.

خطا خالد خارجاً من الغرفة، وسار نحو الممر منتظراً من يأتي ويتحدث إليه ومرت عشر دقائق قبل أن يأتي جراح شاب ليؤكد لخالد ما كان قد عرفه لتوه، واعترف له بوجود خطر الموت المحدق به.

فما كان على خالد سوى انتظار مصير نوح وقام بشهامة بتغطية نفقات المستشفى.

ومضى نوح في العناية المشددة خمسة وعشرون يوماً، وهو فاقد الوعي مشلول الجسد. وكان خالد يزوره بين اليوم والآخر ليتابع تطوراته الصحية. أما كارمن فلم يطلعها خالد بشيء عن ذلك. وبقيت تظن أن نوح مشغولاً عليها زار لبنان وعاد إلى باريس وحيداً مكسور الخاطر.

سارة فيكتور زوجة نوح، على رغم كل ما تكنّه له من جفاء وبُعد، شعرت بغيابه وراحت تتصل بالأشخاص المقربين منه لعل أحدهم يعرف شيئاً عنه. وظنت في بداية الأمر أنه قد هجرها إلى الأبد. ولكن عائلته محت هذه الفكرة من رأسها، مؤكدة أن نوح لا يقوم بخطوة كهذه أبداً. فنوح كان عند حسن ظن الجميع به، فهو مسالم بطبعه ينفر من المشاحنات، ويحرص على تجنب ما يريب كان يضحك في وجه كل إنسان، ويعفو ويصفح مهما كانت الإساءة بالغة. ثم أنه كان مرحاً يومي بريق عينيه ببياض قلبه.

وفي نهاية المطاف اجتمع الجميع عائلة نوح وأصدقائه على فكرة تكليف السفارة الفرنسية في لبنان في البحث عنه.

وما كانت إلا بضعة أيام وعلموا بالحادث الأليم الذي ألمّ بنوح، وسافرت سارة إلى لبنان للاطمئنان على سلامته والمكوث إلى جانبه. فقد كان هذا غير متوقعاً لخالد، لقد ذهل عندما وجد زوجته الفرنسية في المستشفى. فالخطّة التي رسمها للانتقام لن تنجح ما دام أحداً من افراد عائلته قد وصل للتكفل به، أي أنه لن يتمكن من الانفراد بنوح والتحكم فيه بعد رجوعه إلى وعيه التام. وراح يدعو له بالموت!

لقد أخبروا سارة في المستشفى عن خالد، فأرادت التعرّف إليه لتشكره على المبادرة الطيبة التي قام بها تجاه زوجها. ولكن خالد لاذ بالهروب منها، وظل يتفقَّد حالة نوح من بعيد.

وذات يوم بينما كان خالد جالساً في مكتبه منهمكاً بأعماله رن جرس هاتفه وكانت سارة. فطلبت منه مقابلته بكل لباقة. لم يرفض مقابلتها لأن فكرة ما جالت في رأسه فور سماع صوتها. فخالد قرر المضي في خطته، ولكن بطريقة مختلفة.

سيجعل من سارة أداةً للانتقام. سيعرّفها عن نفسه وسيقول لها أنه زوج عشيقة زوجها، ويعقد معها صفقة لإبعاد نوح تماماً عن حياته الزوجية بحال بقي على قيد الحياة. وبعد ذلك يفعل ما يشاء بزوجته المكسورة كارمن، سيجعلها تدفع ثمن كل دقيقة تكلمت بالسوء عنه لرجل آخر. فبنظره كارمن قدمت على خيانته فهل عليه أن ينسى الخيانة بسهولة وبمثل هذه السرعة؟ أخيانتها له لا تزيد في تأثيرها عن اقتلاع ضرس مؤلم في الفم؟

ألم هائل يلّم به، تباً لكارمن!..

طباع سارة الأوروبية جعلته يتعجب فبعد ان سرد عليها قصته مع زوجها، وكشف لها قصة مبالغٌ فيها تجمع بين كارمن ونوح، بادرته بالقول: "عذراً سيد أبو شريف، فأنا لا يمكنني اتخاذ أي قرار عن زوجي واحترم خصوصيته، وأفضِّل انتظار نجاته واستعادة وعيه ليقوم هو بالتصرف والاتفاق معك".

جوابها له كان كالسدّ لطريق انتقامه. وتابعت قائلة: "أنا لست هنا للحديث عن مشكلاتك. لقد طلبت مقابلتك لأشكرك على الاعتناء

بنوح ولمعرفة قيمة المصاريف التي دفعتها للمستشفى كي أعيدها لك".

كان كلامها كسيفٍ حاد يدخل ويخرج إلى جسده ويمزّق لحمه بعد أن ظن أنها سترةً النجاة للوصول إلى ما يرسمه. فأخذ الغضب الشديد يسترقه ويستبعده، فتركها وحدها في المقهى حيث التقيا على فنجانٍ من القهوة وخرج كالمجنون متوجهاً إلى منزله.

فتح باب المنزل بالمفتاح وأوصده جيداً بعد دخوله وأعاد المفتاح إلى جيب سرواله، وراح يبحث في أرجاء المنزل عن كارمن، وأثناء ذلك قفل بالمفتاح على رودي وحجزه في غرفته.

كانت كارمن في هذه الأثناء تغط بنوم عميق، والساعة آنذاك تشير إلى الرابعة بعد الظهر.

رودي يشاهد الرسوم المتحركة، وخالد قام برفع صوت التلفاز قبل حجزه بالغرفة منعاً لأن يسمع أي صوتٍ قد يصدر.

وقف خالد أمام سريرها ونيران الغضب تطل من عينيه. ومن دون أن ينطق بحرف، مسك بقبضة يده شعرها الأحمر ورفع رأسها.

استفاقت كارمن على ذعر وخوف

- "ماذا حلَ بك يا خالد؟"، قالت ذلك بصوت مخنوق، فراح يبرحها ضرباً كالمجنون وهو يردد

- "لن تكوني سعيدة ما حييت، عهدٌ عليّ أن أجعلك بائسة طوال حياتك، أيتها الساقطة الغبية، شرفٌ كبير لك أن تموتي الآن بين يدي". وأخذت كارمن تصرخ وتطلب منه الرحمة، وكلما تفوهت بحرف كانت الضربات والشتائم تنهال عليها.

غابت كارمن عن وعيها، والأمر كان يستلزم نقلها إلى المستشفى، ولكن خالد لن يفعل ذلك طبعاً، لأنه بخروجها من المنزل سيتورط، فهي ستقوم حتماً بالادعاء عليه وتطلب من السلطات أن تفصلها عنه وتبطل زواجها منه، وستتمكن من ذلك بكل سهولة.

أي مصيبة وقع فيها وإلى أين أوصله غضبه؟ تنفَّس خالد نفساً عميقاً وحملها نحو الحمام وغسل لها وجهها، وراح يمسح وجهها وشعرها بقطرات العطر لتستعيد وعيها.

كانت يداها باردتان ووجها أصفر وشفتاها زرقاوان. وآثار الكدمات ظاهرة تماماً على وجهها وجسمها.

"يا إلهي ستموت كارمن". قال بصوتٍ عالٍ من دون وعي. فإذا أصابها مكروه سيحوَّل للقضاء، فما فَعله هو شروع بالقتل وعقابه الإعدام شنقاً. وإذا ادعى أنها خائنة وأقدم على ضربها دفاعاً على شرفه، لن ينجح لأنه لا يملك أي دليل يستند إليه. لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ وهنا أدرك تماماً عندما رأى كارمن جثة أمامه أنه قد أفرط في غضبه، وأن غلطها أصغر بكثير من ردّ فعله. تبخّر جزءٌ من الغضب، وجزءٌ من القسوة وبقي الخوف بكامله، فحملها إلى سريرها وراح يدلّك يديها الباردتين ويحاول الحديث معها كي تستفيق وتعود لوعيها.

اتصل بصديق له وهو طبيب وشرح له ما حدث، فأرشده الطبيب بكيفية اسعافها المؤقت إلى أن يصل إليه، وما كانت إلا نصف ساعة وسمع خالد صوت محرّك سيارة يصل باتجاه بيته.

تناول الدكتور سعد حقيبة جلدية كانت على المقعد الخلفي، وترجّل من السيارة متجهاً نحو باب سجن كارمن.

كان الباب قطعة مُتقنة الصنع من خشب قديم ومطليّاً بعناية بلونٍ كستنائي لمّاع. وقبل أن يضغط الطبيب على ذاك الزرّ النحاسي الموجود على يمين الباب، فُتِحَ الباب قليلاً وظهر وجهٌ ينظر إلى الخارج.

يا لهذا الوجه! كان محاطاً ببشرة شاحبة، أعلاه عينان مرعوبتان، وبعد أن فوجئ الطبيب بتعابير وجه خالد سأله:

- ماذا حدث يا خالد؟
- بسرعة أرجوك.

ترافق الطبيب وخالد إلى غرفة النوم حيث كارمن، وتفاجأ كلّ منهما بها تجرّ نفسها نحو الباب.

كان هناك منديل مشبّع بالأحمر مضغوط بإحكام على الطرف الأعلى من دَفَقٍ أحمر مُثَلَّثِ الشكل سال نزولاً متجاوزاً الفم والرقبةَ حتى وصل إلى فستان نومها بعدهما.

رفعت كارمن المنديلَ عن أنفها فكشفت عن شفتيها المشقوقتين وأسنانها المبلَّلة بالدم، وأنفها لا يزال ينزف، كان دفقاً مستمراً.

ذهب الثلاثة إلى المطبخ لإجراء علاجي نجح الطبيب في إتمامه. كان خالد يبلل قطعاً من القماش في ماء دافئ ويمررها إلى الطبيب الذي نظَّف وجه كارمن، وحشا فتحتي أنفًها بالقطن وقطّب شفتيها المشقوقتين.

قضى التخدير على الألم، واستقرَّت كارمن في حالة هادئة، كان من الصعب وصفُ شكلها بدقّة، لحظات قليلة وشعرت كارمن بدوارٍ وغابت من جديد عن الوعي.

الخوف الذي كان يتملّك خالد جعله يخرج من المطبخ، تاركاً آثار جريمته الشنيعة مطبوعة على معالم كارمن.

فتح خالد باب غرفة رودي، فوجده يبكي بصوتٍ أعلى من صوت جهاز التلفزيون.

"ما بك تبكي يا بطل؟"، سأله خالد.

تلعثم رودي وتحوّل بكاءَه إلى سعال وكحّة. فتقدّم خالد منه وقال له برفق: "لا تبكي يا بني وخذ نفساً عميقاً، ثم أخبرني عن سبب هذا البكاء".

قبل أن يكمل خالد كلامه لابنه وصلته الإجابة، فرودي قد تبوّل في ثيابه، وبسبب خوفه من التوبيخ أخذ بالبكاء، ولكن ردّ فعل خالد كانت بعكس العادة، أخذه في حضنه وطبطب على ظهره مطمئناً وحيده أن الأمر سيكون على ما يرام.

- لا عليك يا حبيبي، سندخل أنا وأنت الحمّام الآن وأغسل لك جسمك الصغير بالماء والصابون المعطّر الذي تحبه، وسنختار بعدها الملابس التي تفضلها كي ترتديها.
- أين ماما؟

سأله رودي بصوتٍ يشهق بالبكاء.

- "والدتك الحبيبة خرجت للتسوق، وستعود عند المساء، اهدأ أرجوك وتصرّف كالرجال الأبطال".

هزّ رودي رأسه إيجاباً وتجاوب مع والده لإتمام التخلّص من الحالة المزرية التي وصل إليها.

- هل أنتِ بخير؟

سأل الطبيب كارمن بصوتٍ منخفض وهو يقوم بتبريد الكدمات التي نالتها من خالد.

ظلّت صامتة لم تنطق بكلمة، فعاود الطبيب الكلام معها:

- حتى وإن كنتُ صديقاً لزوجك، هذا لا يعني موافقتي على ما فعله بكِ.

فردّت عليه ببطئ وبصوتٍ أنفي باهت:

- لستُ في حالة جيدة دكتور سعد.
- هل تريدين أي مساعدة مني؟

صمتت برهةً طويلة، ثم هزّت رأسها:

- شكراً، سأكون بخير... فأنا واثقة من أن هذا الأمر لن يتكرر.

لم يقتنع الطبيب بأن ما قالته كارمن هو ما تشعر به، لأنه كان متأكداً من عدم منحها ثقتها له.

عاد خالد إلى المطبخ ووجد صديقه الطبيب منهمكاً بغسلِ يديه في الحوض، فيما كانت كارمن تساعد نفسها على النهوض والخروج من المكان، فحاول أن يساعدها فصدّته بنظرة لوم.

استدرك الطبيب الأمر وطلب من خالد أن يتركها تذهب إلى غرفتها بنفسها.

انتظر خالد والطبيب عشر دقائق ريثما صعدت كارمن إلى الطابق الأعلى لأخذ حمّاماً دافئاً وتبديل ملابسها، سمعا صوت الماء يسيل ويتوقف، ثم صوت الباب وخطوات نحو الغرفة.

وهكذا غادر الدكتور سعد المنزل وأشعل المحرّك وانطلق بالسيارة.

وعاد خالد بعد دقائقٍ قليلة، وجلس بقربها، وعمّ الصمت المكان، فقطعته بعد قليل قائلةً لخالد وبنبرةٍ ضعيفة:

- "خالد، أنا أريد الطلاق فوراً".

فأمسك بيدها وكأنه يشعر بالندم:

- "إليك ما تريدين يا كارمن، ولكن بعد أن تشفين تماماً من ما سببته لك من أذى".

أجابها وعيناه موجهة نحو الأرض.

سحبت كارمن يدها من يده وحولت نظرها إلى الجانب الآخر، وقالت من دون أن تنظر إليه:

- "اتركني واخرج من الغرفة".

فنهض وتركها كما طلبت منه وسار نحو غرفة رودي، حيث وجده نائماً وسط غرفته أرضاً والتلفاز ما زال يعرض الرسوم المتحركة. فحمله إلى السرير وقبَّل رأسه بعيونٍ دامعة، نعم، خالد أبو الشريف أخذ يبكي.

نادراً ما كان هذا الرجل يبكي، فآخر مرة بكى فيها عندما توفيت والدته كان اثناءها عازباً فتياً، أما يوم وفاة والده لم تنزل من عينه دمعة.

بفضل حقنه المسكِّن التي غرزها الطبيب في عضل كارمن، غطت بنومٍ عميق في السرير. أما خالد فبقي ساهراً طوال الليل يتقلَّب على الفراش، ويقصد بين الساعة والأخرى الغرفة التي تنام كارمن فيها ليطمئن عليها.

الرياح الهوجاء كانت تعصف في الخارج، ورياح القلق كانت تمزّق أفكار خالد في الداخل.

Chapter 6

حضانة رودي

غطَّت عين خالد بعد سهرة طويلة في الصباح، أما رودي الذي استفاق بعدها وسحب نحو كارمن. وعندما رأى الكدمات العنيفة على وجه وجسم والدته صرخ خوفاً.

صوت رودي أيقظ كارمن وخالد، وراح يسألهما عن سبب إصابة والدته الحبيبة.

تسمَّر خالد في أرضه لا يعرف ما يجب أن يقول لابنه، أيخبره أنه قد أبرحها ضرباً في الليلة الماضية؟ أم يصرخ بوجهه ويأنّبه على السؤال. كارمن أنقذت الموقف بسرعة وأخبرت رودي الصغير أنها بخير، ولكنها تعرضت لحادث صغير وستصبح بحال جيّد، فراح يطبطب عليها مخففاً عنها آلاًمها.

المشهد جعل خالد يزيد من ندمه حيال ما فعله بكارمن الرقيقة، التي طلبت منه إحضار المربية من جديد لتعتني برودي لأن التعب الذي يعصر في جسمها لن يمكنها بالقيام في تلبية حاجاته.

وما كان باستطاعة خالد إلا تلبية طلبها والنزول عند رغباتها.

خرج خالد من المنزل لإحضار أم عادل المربية، وكلّه خوف وهلع على فقدان عائلته.

خالد لا يحب كارمن، ولكنه متمسك بزواجه خوفاً على فقدانها. فبنظره كانت كارمن ملكاً له، وسوف لن يسمح لنوح أو لأي شخص آخر بأي شكل أن يقترب منها أياً كانت العلاقة بينهما. فهي كانت تخصّه.

أثناء غياب خالد عن المنزل، نهضت كارمن من السرير وراحت تحزم أمتعتها وأمتعة ابنها استعداداً لترك المنزل والانفصال عن خالد في أقرب فرصة ممكنة.

فكارمن على رغم الكدمات العنيفة التي تعرضت لها. أصبحت أقوى من أي وقت قد مضى وأصبحت أكثر إصراراً وعزماً على الطلاق. فالكدماتٍ باتت سلاحاً حاداً ترفعه بوجه خالد.

أجل، هي مصرّة على اصطحاب رودي والرحيل من المنزل الذي تضجّ زواياه بأسوأ الذكريات التي مرت بها طيلة زواجها. ستنزل بشكل موقت في فندق إلى أن تنتهي معاملات الطلاق، لتسافر بعدها وابنها إلى دار والدها توفيق الأسعد في فرنسا. وهناك في باريس ستلتقي بنوح وتطلعه على كل ما جرى لها، وتبرر له موقفها في انقطاعها عنه. كانت متأكدة أنه سيتفهمها وسيقف بجانبها ويخفف عنها.

لم تكن تعلم أن نوح المسكين هو طريح الفراش في غيبوبة يصارع الموت في أحد مستشفيات بيروت.

عاد خالد وأحضر مربية رودي أم عادل، وطلب من كارمن الحديث للتفاهم محاولاً تصليح الوضع. لكن كارمن رفضت أي حوار أن يدور بينهما:

- "الطلاق أولاً يا خالد، ليس هناك من شيء نتفاهم عليه. لا أريد سوى حريتي لأعيش وابني بسلام... وأنا على استعدادٍ تام بأن أتنازل عن جميع حقوقي الزوجية مقابل حريتي". قالتً هذا بنبرة جادة.

- "لا يزال بإمكاننا أن نسعى لإنجاح الأمر إذا ما رغبنا في ذلك" أجابها خالد، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك بقدر ما كان يريدها أن تفكر بهذا الأمر.

- " أعيد إليّ هاتفي وأعد أسلاك الهاتف. كفاك رجعية وتصرُّف كرجلٍ عصري. فهل تظن أنك بلغة العنف والحَجِرِ ستحلّ المشكلة؟".

لم يتأخر خالد عند تلبية طلبها وأعاد إليها هاتفها المحمول، وعاد ووصل أسلاك الهاتف إلى مكانها. واقترب منها قبل مغادرته المنزل قائلاً:

- "لك ما شئتِ يا كارمن... القرار أصبح بيدك... ولكنني أتمنى لأجلي ولأجل طفلنا أن تظلي في المنزل ولا تغادريه"، واستدار وخرج من المنزل.

لقد فتح خالد لها باب القفص. فهل تطير كارمن لتغرّد بعيداً عنه؟

ركضت نحو غرفتها واستلت سمّاعة الهاتف وطلبت من دون وعي أو تفكير رقم هاتف نوح. ولكنها وجدته مغلقاً.

إلى من تتصل لترمي بحملها عليه وتفرج قليلاً عن همها؟ هل تتصل بعائلتها؟

لا... فهي لا تنوي على الأقل في هذه الفترة أن تشغل بالهم، فاتصلت بصديقتها سلمى وراحت تحدثها وتبكي، وأخبرتها أنها تعزم على الانتقال إلى فندق إلى أن تنتهي من معاملات طلاقها من خالد.

- "ماذا تقولين يا كارمن؟ أنتِ تنوين المكوث في الفندق ومنزلي في لبنان موجود؟ سأتصل الآن بوالدتي لتجهز لك المفاتيح، مرّي عليها وخذيها وانتقلي إلى منزلي، فرودي لن يرتاح ولن ينعم بالحرية في الفندق أبداً"، ردت سلمى وكانت بغاية التعاطف معها.

- "شكراً لك يا صديقتي ولكن مدرسة رودي ستصبح بانتقالنا إلى منزلك بعيدة جداً"، قالت كارمن، وكانت تحاول إيجاد حجّة لعدم مكوثها في منزل سلمى. وذلك لأنها كانت تشعر بثقل كبيرة".

- "هناك ألف سائق يتمنى توصيله يومياً إلى المدرسة وإعادته إلى المنزل، لا تختلقي الأعذار لو سمحتي، فأنا أفهمك جيداً، هيا وافعلي ما قلته لك بسرعة".

وهذا ما حدث، استغلت كارمن غياب خالد واتصلت بمكتب الخدمات ليحضروا لها سيارة أجرة وجمعت أمتعتها وأمتعة رودي واصطحبت معها أم عادل وغادرت المنزل من دون عودة.

انطلقت السيارة بهم نحو منطقة جل الديب، حيث منزل عائلة سلمى، فأرسلت أم عادل لتأتي بالمفاتيح، وتحاشت أن تصعد بنفسها كي لا يراها أفراد تلك العائلة وهي شاحبة ملطخة بالكدمات. على رغم أنها كانت ترتدي نظارة سوداء كبيرة تحجب ما أمكن من هذه الكدمات. ومن ثم سارت السيارة بعد عودة أم عادل نحو الرابية حيث منزل سلمى.

رن هاتفها لمرات عديدة وطويلة، كارمن رفضت الرد على خالد، فهي باتت لا تريد سماع صوته بعد اليوم. فليفعل ما يشاء، فخالد لن يقدم إلى عمل مشين يفوق ما فعله، لقد ضربها بل أبرحها ضرباً، فهل هناكٍ فعل أكثر بشاعة من هذا؟

ولكن ماذا لو طلبها إلى بيت الطاعة؟ سؤال لمع في خاطرها وكأنه كوب ماءٍ ساخن تلقته على وجهها:

- "يا إلهي ماذا أفعل؟" تمتمت والخوف يعتصر قلبها. فراحت تسير في أرجاء المنزل تتكلم مع نفسها.

إلى من تلجأ في حالةٍ كهذه؟ ومن تستشير؟ ظلت مصرّة أن لا تطلع عائلتها كي لا تجعلهم يقلقون عليها. اتصلت بسلمى وراحت تبكي وتشكو لها ما جال في رأسها.

سلمى كانت معارضة لرأيها وكانت ترى أن عائلتها يجب ان تكون على اطلاع بما يحدث، أو على الأقل والدها لكي يقف إلى جانبها ويحميها من مخالب ذاك الزوج التي باتت تتوقع منه أي مفاجأة.

ترددت كارمن قبل ان تتصل بوالدها. ماذا تقول له؟ ابنتك الوحيدة تركت منزلها الزوجي والكدمات العنيفة منتشرة على جسمها ووجهها؟ ابنتك الوحيدة متهمة بالزنا وخالد أبو الشريف قد مسح في شرفها الأرض.

نعم. حتى لو ذلك سيكون قاسياً على مسمع الوالد، فكان عليها أن تقول له ذلك، فاتصلت به وقالت له كل شيء. أطلعته على قصة عذابها بالكامل.

سارع توفيق الأسعد إلى بيروت عند أول رحلة طيران. وتوجه نحو الرابية مباشرة للقاء وحيدته كارمن.

وبقدر ما كانت كارمن متشوقة لرؤية والدها. كانت تشعر بالخجل حياله كي لا يرى علامات الضرب العنيفة التي تركها خالد للذكرى على وجهها.

وما إن رأى توفيق ما رآه، طلب خالد وتحدث معه بلهجة قاسية، لم يتوقع قدوم عمّه إلى لبنان أو على الأقل بهذه السرعة.

- "أهلاً بك عمّي متى وصلت؟"، قال له محاولاً ترطيب الحوار الجاف الذي كان يتوقعه من توفيق الأسعد.

- "أجب على سؤالي يا خالد... أين أنت؟" لم يكن هناك أي مجال عند توفيق ليفسح لخالد المجال للمجاملات.

- "أنا في السيارة في منطقة فردان". أجابه وكان الخوف قد بدا على صوته.

- "سأوافيك إلى منزلك. كن هناك بعد نصف ساعة".

قال توفيق بلغة الأمر وقطع الاتصال. ثم رفع نظره إلى كارمن وبادرها بابتسامة تطمئن قلبها قائلاً بحنان لها:

- "سيكون كل شيء على ما يرام يا حبيبتي ما دمت أنا على قيد الحياة".

فتنفست كارمن الصعداء وغمرت والدها ممتنة له وقوفه إلى جانبها.

لم تمضِ النصف ساعة، وكان توفيق الأسعد واقفاً أمام باب منزل خالد ابو الشريف وشرارة الغضب تشع من عيناه.

- "حمداً لله على سلامتك يا عمّي". بادر خالد بالقول عندما فتح له الباب.

– "شكراً" أجاب توفيق بجدية وجفاء وتفضل بالدخول قبل أن يدعوه خالد إلى ذلك. وجلس على كنبة الصالون، ليجد على الطاولة صينية عليها فنجان من القهوة".

أسرع خالد بالقول:

ـ "أعددت لك فنجاناً من القهوة كي نتحدث بهدوء وحكمة، تفضّل".

أخذ توفيق من يد خالد الفنجان وشرب منه،

صمت توفيق لدقيقة، ومرّت هذه الدقيقة على خالد بتثاقل والخوف يعتصر قلبه والأفكار تتصارع في رأسه.

– "ما فعلته يا خالد بابنتي لن اصفح لك عنه ولن أسامحك عليه ما حييت، سنذهب الآن سوياً إلى المحكمة لتطلق ابنتي. فأنا لا أسمح لأي كان أن يعيش مع ابنتي تحت سقف واحد إذا فعل ما فعلته انت بها"، كان جاداً وحازماً بقوله.

– "ولكن يا عمي أنا..." فقاطع توفيق كلام خالد قائلاً بنبرة غاضبة عالية:

– "ما قلته سينفّذ بالحرف، ليس هناك وقت للجدل".

خالد لن يخسر كارمن ولن يدع ضغط عمّه يهدم حياته الزوجية، فأخذ خالد نفساً عميقاً وتجرأ وقال:

– "آسف يا عمي، لن أستطيع الانفصال عن كارمن أبداً. فإذا انتهى زواجي أكون قد انتهيت. لن أطلق ابنتك".

وأدرك توفيق أن المال وحده يفك عقدة لسان خالد ويجعله يخضع للطلاق، فأخرج من جيبه دفتر التوفير ووضعه أمامه ورفع وجهه قائلاً لخالد:

- "كم تريد بالمقابل؟".

ظن توفيق الأسعد أنه بالمال سيمدّ سلطانه على خالد ويرغمه على تنفيذ جميع أوامره. فالمال هو السيد المطلق، وما لصاحب المال إلا أن يأمر. وما على خالد بحصوله على مبلغٍ محترم من المال إلا أن ينفِّذ أوامر توفيق الأسعد السامية.

انصرف خالد إلى التفكير، وأشعل لفافة ونفث دخانها في الفضاء.

استغرق في الصمت والتفكير في الأمر لبعض الوقت، فاهتاج توفيق وقطع صمته. وراح يردد السؤال عليه مرة أخرى.

- " كم تريد مقابل طلاق ابنتي يا خالد؟".

- " أتظن يا عمّي أنني أستطيع استبدال زوجتي الحبيبة بالمال؟".
قال خالد والخبث يبدو على وجهه. ففهم توفيق أن خالد يريد مبلغاً كبيراً.

- "مهما كان المبلغ الذي ستطلبه سأوافق عليه. هيا يا خالد لا تتردد بالقول".

- "لا أريد مالاً، أريد زوجتي وابني، ولك منّي أن أعدك بحياة جديدة وآمنة لهما".

ـ " كارمن لا تريد أن تبقى في حياتها الزوجية هذه ".

ـ "لن أجبرها على ذلك، ولكن بمقابل ذلك ستتنازل عن حضانة رودي".

ـ "فوق عذابك لها تريد أن تعذبها بألم فراق ولدها عنها؟... أي صنفٍ من الرجال أنت؟".

ـ "اشرب قهوتك لتبقى هادئاً أرجوك".

لم يتوقع توفيق الشرط الذكي الذي وضعه خالد، لأنه كان متأكداً تماماً أن ابنته ستضعف أمام ذلك، وربما ستعود إلى منزله خاضعة.

– "سأدفع لك مليون يورو" بادره توفيق آملاُ بطمع خالد وحبه للمال. ولكن خالد قطع له الطريق. وظلّ مصراً على موقفه.

وبعد عدة محاولات لاذت بالفشل نهض توفيق وهو يقول:

– "لقد أنذرتك ونصحتك، ولن أكون مسؤولاً عما سيحدث لك، كارمن ستخضع لفحص طبّي، وأنتَ تعرف تماماً إلى أين ممكن أصل بنفوذي يا خالد. وابنتي الغالية لن تعود إلى منزلك أبداً".

خرج توفيق غاضباً من سجن كارمن شاحب الوجه، ونقاط العرق تلمع على جبينه، فأطفأ خالد ما تبقى من لفافته، وأخذ الموبايل واتصل بممرضة تعمل في المستشفى الذي يتعالج فيه نوح كان قد أخذ رقمها أثناء تردده إلى هناك قبل وصول سارة من فرنسا.

جلست كارمن تستمع إلى بيان والدها والآلام تخنقها. فبادلها الوالد نظرة العطف والتفاهم والحيرة وردد قائلاً:

– "لا تحزني يا ابنتي. ففي القريب العاجل ستتحررين من عقد هذا الزواج اللعين. وابنك الصغير الحبيب لن يفارق حضنك".

ردت كارمن والغضب يهزها هزاً:

- "سأقتل هذا الرجل اللعين، ليتني سمعت كلامك منذ البداية، لقد كنتَ معارضاً لهذا الزواج، أنظر إليّ الآن، فأنا اليوم أدفع ثمن عنادي وإصراري".

غمر الوالد ابنته التي انفجرت بعد قولها بالبكاء، وراح يخفف عنها بكلمات العطف، واتصلت بها والدتها ورددت على مسمعها عبارات من المواساة والتخفيف.

على كارمن أن تكون متأكدة أنها أقوى الآن بالتفاف عائلتها، ولكن شعورها بفقدان حضانة ابنها جعلها تضعف وتنهار.

Chapter 7

الأب

خيّم الليل بجنحه فوق المدينة، أُطفئَت أنوار البيوت، وأطلَّ نور القمر بين الغيوم الملبّدة في السماء، وفي تلك الساعة المملوءة بسحر الهدوء، جلَس توفيق الأسعد يدخّن غليونه الفرنسي يفكر في حلٍ لإنقاذِ ابنته وتحريرها من عقد زواجها المشؤوم من خالد أبو الشريف دون خسارة حضانة حفيده.

- "أما زلت مستيقظاً بابا؟"، سألته كارمن بعد أن خرجت من غرفة النوم ووجدته جالساً على كنبةٍ في زاوية الصالون أمام مدفئة الحطب. فبادرها بابتسامة عطفٍ وأومأ برأسه.

- "ستظل عيني ساهرة لا تعرف النوم ما دام خالد زوجك، ولكن أريد أن أفهم لماذا أنتِ رافضة أن نلجأ إلى القضاء، فبإمكاننا رميه في السجن بسهولة".

- "لا أريد عندما يكبر ابني حين يسأل عن طلاق والديه أن يعرف أنني سجنت والده، ولا أريد أيضاً لخالد- بدافع الانتقام- أن يقول له شيئاً يسيء إلى كرامتي ويجعله ينفر منّي، فكل ما أريده هو الطلاق بهدوء ومن دون مشكلات في المستقبل".

تشاغل توفيق بتقليب فحم المدفأة بفرع شجرة سنديان، محاولاً إخفاء ألمه على ابنته، وألمٌ آخر يتصارع في أمعائه منذ ساعات. في هذه اللحظة وأثناء حديثها شعرت أن والدها ليس بخير، فقطعت كلامها عن خالد وسألته:

- "ما بك حبيبي، هل أنت بخير؟".

أجابها كاذباً ليخفي آلامه:

. "أجل يا عمري، ولكن ربما بسبب تغيير الطقس، أشعر بمغصٍ خفيف في معدتي، لا تشغلي بالك في ذلك".

. "وكيف لا أشغل بالي وعلامات التعب تبدو ظاهرة على وجهك، سأصطحبك إلى الطبيب"، ردّت معترضة.

. "أيّ طبيب في وقتٍ متأخرٍ كهذا؟ أنا بخير يا حبيبتي، وإذا لابد لك أن تفعلي شيئاً من أجلي، قولي لأم عادل أن تعدّ لي فنجاناً من الأعشاب".

. "أم عادل نامت، سأعدّه بنفسي وأعود إليك".

لم تدخل كارمن السرير قبل أن شرب والدها فنجان الأعشاب المغلي، وطمأنها أن ألم معدته قد خفّ ودخل الغرفة للنوم.

ألقت رأسها على الوسادة وأغمضت عيناها لتسرّع من عملية النوم، بعد أن طلبت من عقلها أن يتوقف عن استباق الأحداث التي ستلمّ بمستقبلها ومستقبل ابنها، إلا أن جرس هاتفها أخرجها من جديد من حالة الاستسلام للنوم، فأجابت:

– "أتتصل بي بعد كل هذا؟".

وجاء صوت خالد على الطرف الآخر:

– "قررت أن أعقد معك اتفاقاً سيحلّ مشكلاتك، فإذا كنتِ تريدين الطلاق، تعالي الآن كي ننهي كل شيء بشكلٍ حضاري".

شعرت كارمن بالقلق بعد المكالمة، ولكنها لم تستسلم لمخاوفها.

كانت السماء آخذةً في التجهّم، وغيومٌ ثقيلة داكنة تتجمّع. لفّت كارمن الشال حولها بمزيد من الإحكام، وخرجت من المنزل في الرابية متوجّهة إلى مكان إقامتها السابق التي دخلته بكامل إرادتها.

حدّقت كارمن من النافذة في حركة المرور الليلية البطيئة بين المباني البنيّة والرمادية الكئيبة، وكان لونها يعكس الانقباض الذي أثقل كاهلها، وأفلتت منها تنهيدة خافتة، وهي تترك الستارة لتستقر مكانها، وتستدير لمواجهة خالد الجالس على الكنبة:

- "ماذا تريد أن تقول خالد، وماذا عن هذا الاتفاق الذي سيحرّرني من قيودك؟".

مطّ خالد شفتيه قليلاً أمام طريقة سؤالها، وهزّ برأسه موافقاً، وابتسم بمكرٍ وكأنما راقه اهتمامها بالاتفاق، أو شعر بتحدٍّ غريب إزاء الذي يفلسف طلبه، رفع رأسه إليها وقال بهدوء وراحة:

- "قبل أن نفكّر أنا وأنتِ بمصيرنا وحياتنا بعد الانفصال، يجدر بنا أولاً التفكير بمصير طفلنا رودي، انفصالنا المفاجئ سيصدمه".

لم تستطع كارمن أن تلوذ بالكتمان طويلاً، فخرج السؤال منها عنوة، قالت:

- "هل تقصد أن علينا أن نبقى معاً إلى أن يكبر؟ هذا مستحيل".

وبفتورٍ وبطء أخرج علبة السجائر وأشعل واحدة منها قائلاً:

- "ليس هذا بالتحديد، أقصد أن نبقى معاً لفترة زمنية ربما تكون قصيرة، نهيئ فيها وحيدنا على فكرة الانفصال، وأعدك خلال هذه المدّة ألا أقترب منك ولا أتصرّف معك كزوج".

ردّت معترضة ومن دون تفكير:

- "ابني حبيبي ما زال صغيراً، وأنا أعرف كيف أمنع عنه صدمة الانفصال".

قال بثقة حازمة:

- "رودي ليس ابنك وحدك، أنا الوالد والأب ولي حق اختيار الطريقة مثلك تماماً. أحضريه وارجعي إلى هذا البيت، وبعدها سأسافر في رحلة عمل إلى الإمارات، بعد عودتي تكوني قد حضّرتيه نفسياً على الفكرة، وعندها سنجلس معه سوياً ونعلمه بقرارنا، فإذا تقبّله يتم الطلاق فوراً، وإذا لا نؤجله ونحاول معه مرّة ثانية وثالثة، وسيتمّ ذلك بمنتهى الوعي والحضارة".

لم يعد لديها مجهود تبذله للحديث مع خالد، فكّرت فيما سيحصل بعودتها إلى سجنها مقابل الحصول على الانفصال، لا مفرّ من التنازل عن كبريائها لأجل رودي، خالد يقتلها في كل حديث معه، نظرات عينيه تفجعها، هل تفكّر في الانتحار للتخلص من يأسها الذي يتملّك روحها، لكن من سيرعى ابنها، فوجوده في حياتها يصبّرها على مأساتها، فأجابت:

- "موافقة ولكن بشرط".

- "وهو؟".

- "أن تنام خارج المنزل إلى أن تسافر إلى الإمارات"

- "سأنام في المكتب... موافق... متى ستعودين؟".

- "في الغد".

ملأت كارمن الغلاّية الكهربائية بالماء وغرفت بملعقة بنّاً مطحوناً ووضعته في المصفاة، شغّلتها، وأخذت تصغي إلى صوت فقاعات الماء وصفيره، وهي تراقب السائل البنّي المتسرّب في الإبريق الزجاجي.

نعم، هي بحاجة لكوبٍ من القهوة ولوّ أنها بحاجة أكثر للنوم.

قررت في هذه الليلة بعد عودتها من عند خالد ألا تفكر بما سيحدث غداً، لا تفكّر بزواجها البائس، ولا بعودتها المؤقتة مع ابنها إلى ذاك السجن الملعون.

وفي طريقها إلى غرفة الجلوس، أخذت كتاب "الشغف (les passions)" الذي أهداها إياه نوح في نهاية لقائهما الأول، جلست على الكنبة وفتحت الكتاب وراحت تقلّب في الصفحات.

على الهوامش كان نوح يدوّن بعض الملاحظات، ويضع خطوطاً بقلم الرصاص تحت الكلمات والسطور التي تعجبه، وبينما كانت مسافرة في جانبٍ من عالم نوح، استقرّ نظرها على ورقة فارغة في الكتاب تفصل بينَ فصوله، كتب عليها ما كان في رأسه في ذاك الوقت الذي لم يكن يعرف كارمن فيه.

"لا أظن أن هناك من أحد سيقرأ ما أكتب الآن، حتى زوجتي سارة، ليس لأنها لا تفهم العربية، بل لأنها لا تهتم بما أكتب أو أفكّر أو أشعر. ولكن لا بدّ لي أن أعبّر من دون أن أستخدم أي حجاب يستر عورة أفكاري.

فأنا قوياً على الرغم من الكآبة التي أشعر بها، ولا يمكن لشيءٍ أن يضعفني أبداً، كل ما أحتاجه اليوم في وحدتي هو الوصول إلى شخصٍ ما وملامسته، ليس بواسطة يدي فحسب وإنما بقلبي...

عندما يشعر كل واحد منّا بالوحدة، فهذا لا يعني أنه وحده، بل محاطاً بأشخاصٍ سيئين".

تنشّقت كارمن بخار القهوة وجرّبت مذاقها، كانت رائعة الطعم بعد ما قرأته من كلمات، وكأن ما دوّنه نوح على هذه الصفحة من الكتاب كان عنها.

لا، فالموضوع يتحدّث عن حالتها، ولكنه لا يتطابق مع حالها، فهي ليست قويّة كما قال، وكل شيءٍ من حولها يضعفها بعكس ما جاء في كلامه.

هل هذا يعني أنها رسالة لا إرادية موجهةٌ لها؟

تماماً. إنها كذلك، وستأخذ بها ليس ابتداءً من صباح الغدّ، ولكن من اللحظة.

جرعة كبيرة من القوّة والأمل أخذتها من نوح على رغم غيابه واختفائه عنها، مما جعلها ذلك تخلد إلى النوم براحة واطمئنان.

الساعة الآن الحادية عشر صباحاً بتوقيت العاصمة، ها قد بزغت الشمس، وارتفعت إلى حيث يراها الجميع، لم يكن نهاراً عادياً، فالشمس لا تعني سوى أن الوقت يمضي، وكارمن ما زالت في سريرها نائمة بعد ليلة طويلة مضت عليها، ابنها رودي في

المدرسة، وأم عادل في هذا الوقت تكون في منزلها ولا تعود إلا قبل عودة رودي بساعة لتعدّ طعام الغداء للعائلة.

هدوء متوقّع يسيطر على المنزل.

فتحت كارمن عيناها واعتدلت في السرير، نظرت إلى الساعة وهبّت بسرعة خارج الغرفة، فهناك أعمالاً كثيرة يجب أن تقوم بها في هذا اليوم، وأبرزها، إعلام والدها بما حصل ليلاً بينها وبين خالد. على رغم أنها أخذت قرارها بالعودة الموقتة إلى سجنها الزوجي، لا بدّ لها باستشارة كبير عائلتها.

ولكن أين هو الآن ؟ سألت نفسها وهي تتنقّل من غرفة لأخرى، فأغراضه موجودة، الهاتف المحمول والنظارة والمفاتيح والمحفظة، لم يستيقظ من النوم كعادته!

دخلت عليه الغرفة واقتربت من السرير وهمست بلطفٍ له كي يصحو.

- "بابا؟... لقد تأخر الوقت... هل تريد أن تبقى نائماً حبيبي؟ بابا؟".

توفيق الأسعد لا يستجيب ولا يتحرك، وأيضاً جسمه بارد ولا يتنفّس!

لقد مات والدك يا كارمن!

Chapter 8

المساء الأخير

بين مراسم الدفن والتعازي، وفترة الحداد والحزن على فراق والدها، وقدوم والدتها إيزادورا من باريس، قضت كارمن أياماً صعبة ونسيت ذاك الإتفاق الذي حصل بينها وبين خالد قبل بضعة ساعات من وفاة توفيق الأسعد.

تقرير الطبيب الشرعي أكّد أنه تُوُفِيَ إثر نوبة قلبية، وجميع من حوله أكّد أنه كان قبل وفاته شديد الحزن والقلق على وضع إبنته كارمن، ولكن لا أحد يعلم الحقيقة!

فأثناء زيارته الأخيرة إلى منزل خالد أبو الشريف، تناول فنجاناً من القهوة أعدّه خالد بنفسه ووضع في الفنجان ثلاثة قطرات من مادة تختفي آثارها وتعطّل جهاز ضغط الدم فتسبب نوبة قلبية قاتلة بعد حوالى العشر ساعات من تناولها.

فخالد شخص يبني لنفسه برجاً من البراءة، ويرمي بغيره في بئرٍ من التهم، يرى نفسه طيّباً وعطوفاً وإنسانياً وكلّ من حوله خبيث وخائن. نظرية عليلة مصابة، مخالفة للمنطق ومعاكسة للعقل، لذلك تواجد طيلة فترة التعازي والدفن والحداد إلى جانب كارمن وعائلتها، محاولاً أن يثبت للجميع أنه على رغم خيانتها له وعدم احترام الميثاق المقدس الذي جمع بينهما يقف معها ويساندها.

خرجت كارمن من غرفة النوم، لتجد رودي يركض ويختبئ وراء أذيال ثوبها، وخالد يجلس على كنبة الصالون براحة عارمة. فمنظر رودي جعلها تشعر بغمامة ثقيلة تتلبّد داخل صدرها، لم تسلّم على خالد ولم تعر وجوده أي اهتمام، انحنت نحو صغيرها وسألته عن سبب خوفه المفاجئ، فأجابها بصوتٍ متقطّع:

- "بابا يريد أن يأخذني ويتركك هنا".

وطوّق عنقها بذراعيه، وارتجف فمه وحاول ألا يبكي. فلو بكى، ثار خالد عليه وربما ضربه كما ضرب كارمن في السابق وشوّه معالم وجهها الجميل.

احتضنته كارمن بقوّة ووجهها مدسوسٌ في شعر الصغير وهمست له مطمئنة:

ـ "ما هذا الكلام؟ ما من أحد سيفرّق بيننا، سترى ذلك يا حبيب عمري، ما من أحد".

التفتت كارمن إلى خالد وحدّقت به بعينين واسعتين وقد ظهر عليها الاستياء:

– "ما سبب هذه الزيارة الآن؟".

مرر خالد أصابع يده بغرورٍ وثقة في شعره كمن يُمشِّط:

– "لأذكّرك باتفاقنا ليس إلا".

– "الوقت ليس مناسباً".

– "لقد أعطيتك الكثير من الوقت وأجّلت سفري بسبب ظروفك، أظن أن الوقت قد حان للتنفيذ، هيّا اجمعي أغراضك وأغراض صغيري الحبيب كي نعود إلى منزلنا".

– "وأمي؟".

– "ستعود إلى باريس مع أول رحلة".

الخوف البائس الذي كان يستبدّ على وجه صغيرها جعلها لا تجرؤ أن تعصي أمره. خرج من عندها إلى منزله بانتظار أن تلحق به،

وخرجت الدموع من عيني كارمن، واعترضت في حلقها غصّة شديدة.

دخلت غرفتها ورمت بنفسها على السرير، وضغطت الوسادة التي كان ينام عليها والدها على وجهها، معزّية نفسها برائحة عطره الباقي.

فتحت إيزادورا الباب عليها وتقدّمت منها قائلة:

- "الموضوع أبسط مما تظنّينه، فخالد أذكى بكثير من أن يقدم على أذيتك من جديد، إنها محاولة منه لخضوعك والبقاء على عصمته، جاريه، ولكن لا تسمحي له بأن ينال مبتغاه، يريد عودتك إلى المنزل وسفري إلى باريس، حسناً، عودي وسأسافر، ولكن بالمقابل سوف ينام كالكلب على كنبة مكتبه خارج المنزل ليلاً، ولن يحصل على أي اهتمام منك، لا طعاماً ولا شراباً ولا حتى لباساً، بإمكانك وانتِ صامتة أن تحوّلي حياته لجحيم بالتجاهل وعدم الاكتراث، لا تَضعفي أبداً، وإن كان لابدّ لك البكاء، فلن يكون هذا أمامه، أما أنا حتى وإن عدت إلى باريس سأكون معك بقلبي يا حبيبتي".

مدّت إيزادورا يدها إليها حاملةً طعم الأمل، ثم عانقتها وودّعتها وراحت كلّ واحدة منهما تحزم أمتعتها، إيزادورا إلى باريس وكارمن إلى السجن القديم.

مرّت ساعات قليلة، وها هي ماسكةً بيد ابنها الناعمة وداخلة بإرادتها من الباب، لقد فعلت ما نصحت به إيزادورا، والخوف يتعاظم في أحشائها، فاستقبلها خالد مبتسماً:

- "أهلاً بك من جديد إلى منزلك الدافئ".

عن أي دفئ يتحدث هذا الرجل، وهذا البيت لا يمثّل لها سوى القهر والخوف والعزلة.

على رغم غليان دمها ورجفان جسمها بادلته بابتسامة مماثلة وردّت عليه ببرودٍ شديد:

- "أهلاً بك خالد".

تبعتهما بعدها أم عادل ومعها الأمتعة، فقالت لسيّدها:

- "طاب مساءك سيّد خالد".

لم يردّ خالد عليها لانشغاله بالنظر إلى كارمن الذي قال لها مغازلاً:

- "تبدين جميلة جداً، لا بل رائعة".

تجاهلت كارمن كلماته تماماً وكأنه لم يقل شيئاً، والتفتت مبتسمة لأم عادل وقالت على مسمع خالد:

- "بإمكانك بعد وضع الأمتعة والاستراحة قليلاً، وبعد ذلك حضّري وجبتان فقط من الطعام لي ولرودي، لا تحسبي حساب السيّد خالد لأنه سوف يخرج الآن ويبيت في المكتب".

ثم استدارت ودخلت مع رودي غرفته وأغلقت الباب بهدوء.

تبعها خالد وفتح باب غرفة رودي وتقدّم منها سائلاً:

- "أتقررين عنّي أوقات دخولي وخروجي من منزلي؟".

ردّت عليه من دون أن تلتفت بنظرها إليه:

- "أنا أتصرّف حسب الاتفاق، ولا أظن بأن في ذلك مشكلة".

- "وأنا أظن أن علينا أن نتكلّم".

- "أتودّ أن تتكلّم أيضاً؟".

ثم سترت فمها إذ تثاءَبت، وتنهّدت قائلة:

- "هيّا تكلّم، كلّي آذان صاغية ".

- " أيهدهدك كلامي لتنامي؟".

- "كفّ عن ذلك خالد وتكلّم".

هزّ برأسه مستجيباً لقولها وقال بهدوء خبيث:

- "سأغيب شهراً كاملاً على أمل أن تحضّري رودي لفكرة الانفصال، كما هو اتفاقنا الذي سبق وفاة والدك العزيز رحمه الله بساعات".

- "حسناً، هل من أمرٍ آخر تريد أن تتحدّث فيه؟".

صدر من فم خالد صوت أصغت إليه كارمن بتقزز:

- "سنتناول طعام عشاءنا الأخير كعائلة قبل أن أغادر، ولا أظن أن هذا سيخالف بنود الاتفاق".

لم ينتظر كارمن أن تقوم بأي ردّ فعل أو تنطق بموافقة أو رفض، استدار وخرج من الغرفة. صفقت كارمن الباب وراءه وأسندت ظهرها عليه، وضغطت بأصابعها على صدغيها محاولة تسكين ألم صداع رأسها الشديد الذي سبّبه لها كلامه المستفزّ.

كانت كارمن بأمسّ الحاجة إلى من تفضفض له ويسمعها، ومن هناك أقرب لها من صديقتها سلمى، فاستجمعت رباطة جأشها، وسحبت من جيبها هاتفها المحمول وطلبت الرقم، وإذ بصوت سلمى يقول عبر الهاتف:

- "كيف علمتي أنني وصلت الآن إلى بيروت؟".

لم تصدّق كارمن ما سمعته، وأجابتها لتستوضح قولها:

- "أتمازحيني سلمى؟".

ضحكت سلمى وقالت:

- "لا أنا فعلاً وصلت إلى بيروت، أين أنتِ الآن؟ في منزلي؟".

أجابت كارمن واليأس يستوطن صوتها:

- "بل في سجني، لقد عدت للتوّ من هناك بعد أن أوصلت أمي إلى المطار، سلمى، أريد أن نلتقي".

- "وأنا جئت إلى لبنان من أجلك".

قالت كارمن بصوت أرهقه التعب والتأثر:

- "حسناً، اعملي حسابك أنك ستأتين للمبيت عندي، هناك مستجدّات كثير يجب أن تعرفيها".

وقبل أن تنهي المكالمة، أكّدت لكارمن أنها ستأتي بعد وقتٍ قصير، ريثما تنتهي من المطار وتضع أمتعتها في منزلها.

كان صوت كارمن على الهاتف متوتراً ومتقطعاً يعتريه الكثير من الخوف والقلق، ما جعل سلمى تتوقع أن ثمّة مأزقاً آخر وقعت صديقتها فيه.

أقفلت كارمن الخط من دون أي كلمة وداع، وجلست على حافة سرير رودي تتأمل حائط الغرفة قبل أن تستسلم لبكاءٍ متشنّج، لكنه مريح.

على الرغم من أن الوقت الذي فصل بين لحظة إنهاء المكالمة وبداية العشاء الأخير مع خالد كان أقلّ من نصف ساعة، إلا أنه مرّ عليها كالدهر وهي تسأل نفسها، كيف عليها أن تتصرّف؟ وهل ستتمكّن من تنفيذ الخطّة التي رسمتها لها والدتها قبل سفرها؟

شرع خالد في السؤال عن كارمن، فردّت أم عادل:

- "أظن أنها ما زالت في غرفة رودي، لقد أعلمتها بأن المائدة أصبحت جاهزة".

لم تلبث إلا دقائق معدودة، فإذا بكارمن تطلع من خلوتها، وأعلام الابتسامة ترفرف على وجهها، ويبدو واضحاً أن ابتسامتها هذه معصوبة على شفتيها، فهناك أشياء يستحيل أن يمارس فيها الغشّ أو الخداع مهما بلغنا من حدّة وذكاء في دروس التمثيل.

جلست العائلة على طاولة العشاء الأخير، الذي عمّه الصمت في بدايته، كان خالد مركّزاً بنظره على زوجته التي تبدو غير مكترثة وترافقها علامات السعادة.

- "تبدين سعيدة".

فزادت لابتسامتها جرعةً إضافية، ونظرت إلى عينيه وسألت:

- "أتريدني أن أكون على عكس ذلك؟".

- "أبداً، ولكن يحق لي أن أسأل عن السبب".

- "لأنّي وببساطة أتناول العشاء معك لآخر مرّة".

ابتسم لاستفزازها وسأل:

- "ألهذا الحدّ تكرهيني؟".

- "لن أجيب لأنك لم تهتم يوماً بما أشعر تجاهك".

- "اليوم وخلال هذا العشاء أنا أسألك، لأنّي مهتمّاً بالإجابة".

أجابت من دون تفكير.

- "أنا لا أكرهك خالد، فالإنسان عندما يكره، يكون كرهه لأشخاصٍ يعنون له، وأنت لا تعني لي بشيء، ولكن إن طلبت أن أحدد لك مشاعري، فالجواب الطبيعي هو، أنا أحتقرك".

خرجت الكلمات عنيفة من فمها وأحسّت بالنفور من قربه، وبالنفور من إدراكها أن وجهه كان أول ما تراه على وسادتها صباحاً لخمسة أعوامٍ متتاليات، ولكن كلماتها العنيفة التي قصدت أن تجلده بها، لم تؤثر على مسمعه، فابتسم وتابع بعد أن هزّ برأسه موافقاً على كلامها اللاذع:

- "وما هي خططك بعد الطلاق؟ أتفكرين بالعودة إلى باريس؟".

- "لا بل سأبقى هنا لعدّة أسباب، أولها رودي، إذا اصطحبته إلى باريس ستراوغ بالاتفاق وتتحجج به، ولا أستبعد أن تمنع سفره".

- "والسبب الثاني؟".

- "والدي ـ رحمه الله ـ ترك لي ميراثاً كبيراً جداً، وأريد استثماره والاستفادة منه".

ضحك ساخراً منها وقال:

- "ومنذ متى كارمن الأسعد تفهم بالأعمال وإدارتها؟".

سخريته لم تؤثر بها:

- "إنها مجرد وجهة نظر، أعرف نفسي جيداً، وأعرف مع من سأتعامل بمشاريعي الجديدة، على كل حال، هذا كلام سابق لأوانه".

جاءَت كلماتها كالقنبلة الموقوتة التي لا يعلم متى ستنفجر وتدمّره بالكامل، وراح خالد يفكر في قرارة نفسه من دون أن يسمح لتعابير الغضب أن تظهر عليه، والتزم الصمت لدقائق. توقّع أنها ستقوم بنفس الشيء وتلتزم صمتاً مثل صمته، ولكنها فاجأته بسؤال لم يكن يتوقعه:

- "حدثني والدي قبل وفاته أن هناك أرض كبيرة باسمه في الشمال استثمرتها منه لإنشاء مشروع، ومدّة الاستثمار ستنتهي بعد فترة قصيرة، ما مصير هذه الأرض؟".

يا لهذا السؤال الذي أرهق شموخه أمامها، وعلى رغم أنه حاول جاهداً عدم ظهور ذلك، إلا أن العكس كان واضحاً تماماً، فأجاب بصوتٍ متقطّع بعد أن شتم بصوتٍ خافت:

- " فترة الاستثمار لم تنتهِ بعد، والحديث في هذا الأمر سابق لأوانه".

فابتسمت وأجابت:

- "لا تأبه عزيزي، فهذا مجرّد حديث، فأنا عند انتهاء المدّة لن أطالبك بها".

استغرب خالد قولها من جهة. وفرح من جهة أخرى، فسألها للتوضيح:

- "أتقصدين أنك ستتنازلين لي عن الأرض؟".

ضحكت ساخرة وقالت:

- "ألهذا الحد تجدني سطحية وغبية ؟ بالطبع لن أتنازل لأحد عن أي شيء تركه الغالي توفيق الأسعد، بل أقصد في كلامي أن المحامي هو من سيتابع في الأمور التي تتعلّق بالأملاك".

خسارةُ هذه الأرض تعني الكثير لخالد، لأنها ستضعف الجزء الأكبر من أعماله، وربما تسبب له خللاً كبيراً في مستقبله المادي. فمن أين حلّت هذه المصيبة التي لم تكن في الحسبان؟

حاول خالد أن يتجنّب الحديث في قضيّة الأرض، ويشتت عقل كارمن ويشغلها بأمور لها أهميّة أكبر عندها، فما نوع هذه الأمور بالنسبة إلى امرأة مثلها؟ فكّر قليلاً ثم قرر أن يلعب عليها بالورقة الرابحة لكل أم، ابنها رودي.

فالتفت إليه ورمقه بنظرة حنان ثم سألها:

- "برأيك مع من سيكون مرتاحاً بعيشه أكثر، معك أم معي؟".

فأجابت من دون تفكير:

- "ومن قال إنه سيعيش معك أصلاً؟".

- "كل شيء وارد يا كارمن".

- "رودي لن يعيش بعيداً عني لحظة واحدة، وأنا اليوم أنفّذ اتفاقي معك على هذا الأساس".

- "وأنا لن أُخِلّ بشروط الاتفاق إلا بحالة واحدة".

- "وهي؟".

- "إذا أثبتُّ عليكِ مسألة الزنا".

خبطَ قلبها خبطاً شديداً وتنهدت تنهيدة ثقيلة تنمّ عن انزعاج

- "لن تتمكن من ذلك، لأنه ليس لكلامك وجود".

- "الأصح أن تقولي، ليس لكلامي دليل".

من شدّة غضبها من اتهامه لها، قذفته بشوكة تفادى منها بسهولة، وأصابت الحائط وراءه، وقالت صارخة بعد أنٍ وقفت:

- "كفاك يا خالد، لقد تعدّيت سقف تحمّلي، لم أعد أحتمل هذه الافتراءات".

ثم استدارت وخرجت من غرفة الطعام وهي تنادي لأم عادل.

تقدّمت أم عادل منها مرتبكة من حدّة صوت كارمن، فقالت لها على مسمع خالد:

- "خذي رودي إلى غرفته، سأدخل الغرفة الآن، وبعد خروج السيد خالد من هنا أعلميني".

لم تنتظر من أم عادل إجابة، وسارت نحو باب غرفتها، ومدّت يدها نحو مسكة الباب لتفتحه، فأمسك خالد بمعصمها قائلاً:

- "ما فعلته الآن لا يرضيني، تذكرّي هذا جيداً".

سحبت معصمها بنترة قوية، وفتحت باب غرفتها على مصراعيه قائلة:

- "أنت من عليه أن يتذكّر، لأنك أنت من تسيء إلى سمعتي، هيا انصرف الآن".

فأمسك ذقنها بأصابعه، ونظر إلى عينيها مباشرةً:

- "إن كنتِ تعتقدين أن خيانتك لي ستمرّ مرور الكرام، فمن المؤكد أن اعتقادكَ زائف، كارمن، ليس لدي وقت لمثل هذا الهراء اللعين، ومهما تكن اللعبة التي تفكرين فيها، أريدك أن تصرفيها من ذهنك، لأن مصير حضانة ولدي بيدي، تذكري هذا جيداً".

أبعدت ذقنها بنفضة، قائلة:

- "لا تتمادى في تعليق آمالك على حضانة الطفل، لديّ خططي الخاصّة، وليس لك في حياتنا المقبلة مكان".

ثم دخلت الغرفة وسفقت الباب وراءها بقوّة ليبقى خالد وحده واقفاً عند الباب.

فهل أخفق بتصرّفه الدنيء هذا؟ أم استخدم الورقة الرابحة بمكانها الصحيح؟

Chapter 9

لقاء جديد

قبل أيام من ليلة العشاء الأخير، دخلت سارة غرفة نوح في المستشفى، فاستقبلها مبتسماً:

- "كيف أصبحت؟".

فأجابها وهو يبدو بحالٍ جيّد:

- "أظن أن الوقت قد حان لخروجي من هنا، فقد مرّ عليّ وقت طويل في المستشفى، وبما أن الطبيب لن يعارض ذلك، اذهبي وسددّي الفواتير لنخرج على الفور".

صمتت سارة للحظة وكأنها تحاول إيجاد طريقة لتخبره ما يجول في ذهنها لنوح، ثم قالت:

- "أريد أن أطلعك على شيء، نصف فواتير المستشفى قد سددت من قِبَل رجلٍ يدعى خالد أبو الشريف".

قولها جاء كالصاعقة، فانتفض قائلاً:

- "ماذا قلتِ؟ كيف ذلك يا سارة؟ ولماذا أخفيتي عنّي هذا الأمر؟".

أجابت غير مكترثة:

- "لأنك وبكل بساطة كنت في الغيبوبة، وأنا لم أكن قد وصلت إلى لبنان... من هو هذا الرجل؟".

ارتبك نوح وأجابها متلعثماً:

- "شخص أعرفه من...".

فقالت مقاطعة والابتسامة على شفتيها:

- "لستَ مضطراً للكذب، فأنا أعرف من هو هذا الرجل، إنه زوج عشيقتك".

- "ليس لي عشيقة سارة ".

- "أووه، حسناً، على أي حال لا يهمّني أمركما، ولا تهمّني مغامراتك العاطفية، ولكن على ما يبدو أن الأمر يهمّ خالد، فالرجل على استعداد أن يقوم بأي عمل يؤذيك، احترس منه".

- "وماذا عليّ أن أحدد موقف مشاعرك تجاه هذا؟".

- "لا تهتم لمشاعري، لأن كل ما يحدث الآن لا يهمّني، وأنا الى جانبك الآن بدافع إنساني، لأنك كنت تقف دوماً إلى جانبي أيام مرضي".

- "أنتِ باردة جداً يا سارة، وبرودك يستفذّني".

- "هذه مشكلتك عزيزي، هيّا جهّز نفسك واستعدّ للخروج".

قالت سارة ذلك وخرجت من غرفته.

***

فتحت كارمن باب شرفة الغرفة، وجرّت كرسي كي تجلس عليه في الهواء البارد الطلق، أرادت أن تشعر بحريّة ولو كانت غير حقيقية، أرادت أن تتنشق بعضاً من الأوكسيجين الذي افتقدته في الداخل، ثم عبثت بشعرها نسمة باردة، وتيسّر لها أن تشتمّ رائحة الأرض، فارتخت عضلاتها وراحت تبكي بحرقة، فبقدر القوّة التي ظهرت عليها أمام خالد قبل قليل على مائدة العشاء الأخير بينهما، كانت

ضعيفة جداً في عزلتها، ولكنها سرعان ما أحسّت بالراحة عندما شاهدت سيارة سلمى تصل إلى مدخل المنزل.

استقبلت كارمن صديقتها سلمى بعد أن ورمت عيناها من البكاء، فمنظرها بهذا الشكل أصاب سلمى بالذهول مما جعلها تصرّ على الخروج من المنزل واصطحاب كارمن معها لتحسّن حالها، رفضت كارمن ولكن سلمى فازت بإقناعها لأنها اقترحت عليها أن تذهبان إلى المقهى المفضّل عند كارمن، إنه في جوار العاصمة، هذا المكان الذي حَكت لنوحٍ عنه بالساعات أثناء أحاديثهما المطوّلة، وهو أيضاً المقهى الذي جمع ذكرياتٍ جميلة بين الصديقتين وشهد على مرحلةِ المراهقة لهما.

وصلتا إلى مقهى "أبو طوني" القديم، وطلبتا القهوة التركية وبعضاً من قطع الكيك الإنكليزي الناشف، بالإضافة إلى أرجيلة عنب لسلمى، وبعدها راحت الصديقتان تتبادلان الحديث.

أخبرتها كارمن كل شيء وبالتفاصيل، وأخذت الثانية تعطي النصائح وتبحث عن الحلول، فوجود صديقة مثل سلمى في حياة كارمن كان ضرورياً.

في هذه الأثناء، نوح وبعد أن بدأ يتعافى تدريجاً من آثار حادث السيارة، وعودة سارة إلى باريس، خرج مع مجموعة من الأصدقاء إلى ملهى ليلي كمحاولة لنسيان واقعه، والكفّ عن التفكير المستمرّ بكارمن.

حاول بعد خروجه من الغيبوبة واستعادة وعيه أن يتواصل معها، ولكن خوفه عليها كان يمنعه، وما أخبرته به سارة، أكّد له أن

تواصله من جديد معها سيحدث لها كوارث في حياتها الزوجية، فاختار أن يظلّ بعيداً عنها.

بعد وصول نوح وأصدقائه إلى الملهى الليلي، ظلّ قاعداً صامتاً، وجال في نظره يراقب الفتيات اللوات يرقصن لزبائن الملهى.

انتقلت إحداهن كي تتكئ بجانبه، وضغطت جنبه بوركها لإغرائه، ثم قالت برقّة وعيناها السوداوان شاخصتان إليه:

ـ "هذه الموسيقى تثيرني جداً، أتمانع مراقصتي؟".

فتجاهلها نوح مشمئزاً، وشرعت تتحدّث بشأن واحداً من عشاقها الكثر الذين يترددون إلى هذا المكان، مراقبةً وجه نوح لرؤية تعابير اهتمام. إلا أنها ما زادته إلا غثياناً. فحدّق إليها غيرَ باذل أيَّ جَهدٍ لكتم مشاعره، ولكنها تغافلت عن ذلك، ولم يكن منها إلا أن واصلت إغراءَها المقصود بكل دهاء أفعى تتظاهر بأنها حمل وديع أو قطة أليفة.

لجأ نوح إلى الشراب للهروب، وقد أمرضه ما كان يشاهده. فتجرّع كأس فودكا بعد أخرى، جاهداً بيأس لإغراق قهقهات نساء المكان. ومع ذلك، لم يستطع أي مقدارٍ من السائل المخدّر أن يحجب صورة كارمن التي لا تزال تخطر في باله.

لقد كان يرجو أن تبلّد الفودكا إحساسه، ولكنها بالأحرى جعلته أكثر وعياً بشكلٍ أشدَّ حدةً. عندها نهض، غير قادرٍ أن يتحمّل أكثر.

ومن دون أن يعتذر من أصدقائه الذين يلهون ويرقصون ويستمتعون بوقتهم، شقَّ طريقه عنوةً عبر الساهرين في المكان، وأخذ ينزل الدرج، وما إنْ تمكّن من الأمر، حتى خرج إلى الشارع وأخذ يركض،

على رغم أن حالته الصحية لا تسمح له بشرب الكحوليات وبذل المجهود.

ركض مسافة طويلة، ثم توقّف للحظةٍ كي يلتقط أنفاسه، أسند كتفه على جدارٍ حجري، وتقيّأ. أغمض عينيه بإحكام، متمنياً لو يستطيع أن يغيّر الماضي، فسأل نفسه:

- "ماذا أفعل في لبنان، ولما لم أرجع إلى باريس وأتابع عملي وحياتي؟ فإذا كارمن باتت مستحيلة، لِما أنا هنا؟".

ثم وقف يجول بنظره إلى مكان يدخله ليغسل وجهه وفمه فيه.

هذا عن نــوح، ولكن ماذا عن كارمن التي لا يشــغل بالها ســـــوى الخلاص من قيود خالد أبو الشريف التي دمّرت كيانها.

قالت سلمى سائلة:

- "غريب أمرك يا صديقتي، لماذا تشعرين بالخوف، وأنتِ تملكين ما لا يملكه زوجك الأحمق؟".

كارمن لم تفهم قصد سلمى، فبادرت سلمى بالقول للتوضيح:

- "أقصد ميراثك من والدك رحمه الله، والذي لا يشكّل المال فقط بالنسبة إلى خالد، بل يهدّد مركزه أيضاً".

- "لقد لمّحت له أثناء تناولنا العشاء بشيء من هذا، ولكن لا أخفي عليكِ، أنا حقاً كما وصفني خالد، لا أعرف إدارة الأموال وخوض الأعمال، باختصارٍ شديد، لا يمكنني أن أقف بوجهه أبداً، لأنه حوت وباستطاعته أن يهزمني بسهولة".

- "ألم تخبريني مرّة، أن نوح رجل أعمال ناجح؟ لماذا لا تطلبي مساعدته؟".

تنهّدت بحسرة عندما سمعت اسم نوح وأجابت على كلام سلمى:

- "أنا لا أعلم شيء عن نوح منذ آخر محادثة هاتفية قبل ليلة رأس السنة".

- "وما المشكلة بذلك؟ يمكنك أن تتصلي به وتكلميه، ألم تقولي إنه صديق؟ فالأصدقاء عليهم مساعدة أصدقائهم قبل قضاء الأوقات السعيدة معهم".

- "غيّري الموضوع، نوح قد انتهت قصته معي".

- "فإذاً علينا أن نبحث عن شخصٍ آخر يساعدنا في هذه المهمّة".

- " بل نحتاج إلى المحامي أولاً، غداً ســـــأتصل بمحامي والدي الأستاذ مروان نصر".

وبينما كانت كارمن وصديقتها تتحدثان في موضوع المحامي، اقترب شخص من طاولتهما واستقرّ وراء الكرسي الذي تجلس عليه كارمن.

"كارمن!.. كارمن!".

انتفض بدن كارمن إذ ناداها صوت باسمها.

- "يا إلهي إنه صوت نوح" قالت كارمن في سرّها، وخافت أن تستدير باتجاه الصوت، وراح قلبها يخفق بسرعة عالية.

نظرت إلى سلمى بذهول، فوجدتها تبتسم لصاحب هذا الصوت، ثم ألقت بخرطوم الأرجيلة على الطاولة، وقالت له:

- "حسب ما وصفتك كارمن، أظن أنك نوح، أنا سلمى".

ومدّت يدها، فأمسك بيدها وسلّم عليها قائلاً:

- "لقد حدثتني كارمن عنك أيضاً".

أما كارمن لم تلتفت بعد وقد بدت عليها المفاجأة والارتباك، فأقامها عن الكرسي بدفعة واحدة.

- "انهضي كارمن".

وقفت كارمن متجمّدة من هول الصدمة، إذ تقدّم أكثر منها. كانت ملامحه تغيّرت قليلاً بعد الحادث.

- "افتقدتك كثيراً".

أخذ قلبها يعدو عدواً سريعاً:

- "أين كنت طول هذه الفترة؟".

- "يفترض أن أسألك أنا بهذا".

فتراجعت خطوة واحدة إلى الوراء، وقالت:

- "قصة طويلة جداً"، تريد أن تبدي ثباتاً، ولكن صوتها المرتجف لم يسعفها في ذلك.

استطاع كلّ منهما قراءة نظرات الآخر، وإذ مدّ نوح يده نحوها، ثم لمس خدّها متردداً، فضمّت كارمن شفتيها معاً لتحول من دون ارتجافهما.

ثم فقد نوح السيطرة على نفسه، وأخذ وجهها بين يديه. ملمس بشرتها أنساه سبب وجوده هناك، فقبّلها.

نظرت إليه مصعوقة، إذ قالت:

- "أأنت حقاً أمامي الآن؟... أين كنت وكيف حالك؟".

- "دعينا من كل هذا، هناك متّسع من الوقت للكلام، دعيني أتأملك الآن، فقد افتقدتك كثيراً في الشهور التي مرّت".

عانقته من دون تفكير، الأمر الذي جعل سلمى تنسحب وتدخل حمّام المقهى، تاركة صديقتها كارمن مع نوح.

Chapter 10

نهاية مؤقتة

لم ينتبها إلى الوقت الذي مرّ بسرعة، الساعة قاربت الخامسة فجراً، سلمى ذهبت إلى منزل كارمن ونامت، وهما تركا المقهى بعد أن أخبرهما أبو طوني أنه يريد الإقفال، وترافقان إلى مقهى آخر اختارته كارمن، كان الطقس معتدلاً يميل إلى البرودة المقبولة، وجلسا على إحدى طاولات الرصيف المحاذي للبحر.

أخبرته كارمن بكل ما حدث معها من لحظة انتهاء آخر محادثة هاتفية بينهما لغاية اللحظة وبالتفاصيل، كما حدّثها هو عن وصوله إلى لبنان ومجيئه إلى منزلها، والحادث الذي تعرّض له، والغيبوبة، وقدوم سارة ومغادرتها، كما أعلمها أن زوجها خالد كان يعلم بوجوده في المستشفى حسب ما أخبرته سارة.

تناولا طبقان من الباستا على مهل أثناء حديثهما، وهما يراقبان السفن تمرّ. أفرغا زجاجة نبيذ أحمر وجلبا أخرى.

بعد وقتٍ قليل، كان كرسيّاهما متلاصقين وذراعاهما متلاحمتين، وأنظارهمًا تطوف في سماء الشتاء المكتظة بالغيوم.

- "أظن قبل أن نفكّر بالخطوات المقبلة التي ستحدد مسار حياتك، يجب أن أعترف لك بأمرٍ بغاية الأهميّة".

التفتت إليه ليتابع كلامه:

- "أنتِ اليوم- وبنظري على الأقل- أصبحتِ امرأة حرّة، وأظن أنه أصبح بإمكاني الاعتراف لك بمشاعري، كارمن انا أحـ...".

قاطعت كلامه بإصبعها الذي وضعته على فمه ليصمت وقالت متوسّلة:

- "لا تكمل نوح... لا أريدك أن تقولها - على الأقل الآن - لا أريد السماح لأي فكرة تجول في رأسي بأن اتهامات خالد لي حقيقية... أرجوك".

هزّ نوح برأسه مستجيباً طلبها وعدَل عن متابعة اعترافه بالحب الكبير للمرأة التي أصبح لا يحب سواها.

عادت كارمن إلى المنزل وأثر صوت نوح ما زال عالقاً في أذنيها، كانت سعيدة جداً على رغم مأساتها.

المنزل مظلم يسكنه الهدوء، فالجميع نيام حتى سلمى التي سبقتها. دخلت الحمّام وخلعت ملابسها ووقفت تحت دش الماء الساخن.

تحسّن شعور كارمن بعد أن غسلت كل جسدها بالصابون، فاستلقت في الحمّام وهي تفكر في تلك السهرة الساحرة الغير متوقعة التي قضتها مع نوح، لم تستطع صرف ذهنها عن نوح لحظة واحدة.

فتحت صنبور الماء الساخن للحصول على كميّة أكبر من المياه الساخنة وهي تسأل نفسها، ما كان سيحدث لو تركته يعترف لي بحبّه؟ كم أنا غبيّة، وراحت تفترض أحداث لم تحدث في هذه الأمسية، وعندها سمعت صوت طرق على باب الحمام مصحوباً بصوتِ خالد:

- " كارمن!... هل ستمضين ليلك كلّه في الحمّام اللعين؟... أخرجي على الفور".

لم تستطع أن تصدّق ما سمعت، ما الذي أتى بهذا الرجل والاتفاق بينهما يقول إن عليه البقاء ليلاً بعيداً عن المنزل؟

استقامت فجأة وغسلت جسدها من الصابون، ولفّت نفسها بالمنِشفة وخرجت مسرعة:

- "لماذا عدت إلى هنا خالد؟".

- "لأن هناك كلاماً يجب أن تسمعيه يا زوجتي الشريفة".

- "كان بإمكانك تأجيله إلى الغد".

- "فرحتي لا تحتمل التأجيل أبداً".

تأففت ونظرت إليه ليقول ما عنده، فسحب من جيبه هاتفه المحمول، وفتحه ثم أدار الشاشة أمام عينيها وقال بنبرة غاضبة:

- "أريد تفسيراً".

نظرت إلى شاشة هاتفه لتجد مجموعة من الصور التقطت لها ولنوح خلال السهرة.

- "هل كنت تراقبني؟".

- "بل كنت أبحث عن دليل وحصلت عليه، وقبل أن تُسمعيني المزيد من وقاحتك، دعيني أذكّرك بأن خالد أبو الشريف ما زال زوجك وعليك واجب الطاعة له، فإذا أنا قلت لك قومي بهذا، فيجب أن تطيعي وتقومي".

- "نوح صديق والصور لا تدلّ على غير ذلك".

قال خالد وعيناه تقدحان شرراً:

- "أنت الآن في مأزق كبير، ودليل خيانتك أصبح موثقاً معي، أي أن بإمكانك من اللحظة أن تعتبري أنك خسرتِ حضانة رودي، وعليك أن تطيعي الأوامر التي سأصدرها، وإلا فستموتين بين جدران هذا المنزل".

وسار نحو الباب حيث وقف وهو يتابع قائلاً:

- "لقد أخرجت كل من في المنزل، لا يوجد أحداً هنا، وقطعت أسلاك الهاتف، وصادرت جميع الأجهزة التي تمكنك من الاتصال بشبكات الإنترنت، وهاتفك المحمول أخذته من حقيبتك أثناء وجودك في الحمام، أنت سجينة في هذا المنزل من جديد".

ثم خرج من الغرفة وسفق الباب خلفه بعنف، بينما بقيت كارمن تحدّق في أثره، لم تستطع أن تصدّق ما يحدث معها، أنها لم تكن حالمة.

أيمكن حقاً لإنسان أن يتصرّف بمثل هذه القسوة وانعدام الضمير؟

تملّك الذعر قلبها حتى ودت لو بإمكانها الصراخ والصراخ، ولكنها عادت فحدّثت نفسها بأن عليها أن تتمالك نفسها، وذلك لكي تجد لنفسها مخرجاً من هذا الوضع الذي شعرت معه بأنها تكاد تختنق.

رفعت نظراتها إلى صورة أبيها الموجودة بجانب سريرها، وتمنّت لو كان ما زال حيّاً. عندها شعرت أن توفيق الأسعد يمدّها بالقوّة لمواجهة خالد مواجهة شرسة.

خرجت من الغرفة، بحثت عنه فوجدته ممدداً على كنبة الصالون رافعاً قدماه على الطاولة.

فقالت بقلب قوي:

- "تظن أن تصرّفك هذا سيجعلك رجلاً؟".

- "اخرسي وادخلي الغرفة، فصوتك بات يسبب الإزعاج لأذني، إلى الغرفة بسرعة، انصرفي".

- "أنت من سينصرف من المنزل ويحضر لي ابني".

- "لن تتمكني من رؤية ابني بعد اليوم".

- "وهل ترى أن بإمكانك سَجني مدى الحياة؟ سأخرج وأسجنك أيها المريض".

- "ومن قال أن سجنك سيدوم طويلاً؟ ستخرجين قريباً جداً من هنا إلى المقابر، وأرثك أيضاً".

اقتربت منه جداً وقالت متحدية:

- "أنت أجبن من أن تقتلني".

أمسك خالد بقبضةٍ من شعرها الذي ما زال مبلولاً ودفعها باتجاهه لتقترب منه أكثر، فصرّت بأسنانها، رافضة إمتاعه بصراخها، وقال:

- "لقد فعلتها قبل فترة عندما دسست السم في القهوة لوالدك".

ودفعها بقوة على الأرض، فإرتطم رأسها على حافة الطاولة، وغابت كارمن عن الوعي.

Chapter 11

قصّة جديدة

لأن المطر ظلّ يهطل طوال الليل، جاء الصباح شاحباً رمادياً كئيباً كوجه بومة عجوز، وبقيت في السماء قطعُ السحاب الأطول سنّاً لتحجب وجه الشمس.

استيقظت كارمن ببطء على رائحة طهوٍ غريب الرائحة. كانت عيناها متورّمتين حتى كادتا تنطبقان، وبالكاد استطاعت تَبيُّن هيئة شخص معها في المكان، بنطلون رمادي وحذاء بني وقميص مخطط. كان منحياً فوق المدفأة، يحرّك ما في الطنجرة الكبيرة.

كان ضوء الصباح يتدفق داخلاً من النافذة، فأذى النور عينيها. كانت في غرفة أصغر من غرفة منزلها، وكانت أرضية المكان من بلاط قديم وغير نظيف. وفضلاً عن السرير المتمددة عليه، استطاعت تبيّن بعض الأشياء الموجودة بصورة مشوشة كطاولة وتلفزيون صغير عليه قطعة قماش ومزهرية، كرسي بلاستيكي، خزانة ذات أدراج وُضِعت عليها بضع بطّانيات مطوية.

- "يا إلهي، أين أنا؟"، قالت ذلك في سرّها.

عاد الرجل وجلس قريب منها على حافة السرير، وسألها بهدوء:

- "أترغبين بتناول الفطور الآن يا حبيبتي؟ ".

"حبيبتي؟!!!!"

جمد الدم في عروقها، وخبط قلبها داخل صدرها، نظرت إلى جسمها، فإذا هي مرتدية ملابس ليست لها، تفاقم نبضّ الحيرة والخوف في رأسها.

ردد ّ الرجل سؤاله مرّة ثانية:

- "أترغبين بتناول الفطور؟ لقد أعددتُ البيض مع القاورما، لا بد أن تكوني جائعة".

فتحت فمها لتسأله من يكون وما الذي جاء بها إلى هذا المكان، فإذا بألم يبرق في حنكها ويخرسها. فسألها وهو يقوم بسكب طبق لها:

- "ما بكِ؟ النسيان من جديد؟".

عن أي نسيان هذا الرجل يتحدّث، كان ينظر إليها وكأنه يعرفها منذ زمن، وهذا ما جعل كارمن أكثر توتراً واضطراباً.

اقترب منها وقدّم لها الطبق بعد أن جلس بقربها، وقال بعطف:

- "حسناً حسناً، يبدو أنك متعبة، سأطعمك بنفسي".

قالت في سرّها كلاماً بذيئاً ودنيئاً، وحاولت أن تدير رأسها بعيداً، ولكن حتى هذه الحركة البسيطة اقتضت جهداً مضنياً.

فقال بهدوء على رغم إدراكه لعدم تقبّلها وجوده :

- "يسرّني أنك تحسّنتِ بعد الحادثة".

إلا أنها أطبقت شفتيها رافضة أن تأكل، ولكن معدتها الخائنة جارت عليها.

- "هيّا افتحي فمك وكلي، ومن ثم سأجيبك على جميع أسئلتك كالعادة".

استسلمت. كان الجوع ينهش معدتها، وكان البيض الذي أدخله في فمها بالملعقة كحبّة دواء مهدئ، فتضاءل نبض الألم في رأسها، فيما كان حنكها يؤلمها ألماً مبرّحاً، وقد وُضِع ذراعها في معلاق من قماش.

قال الرجل :

- " لقد حاولتِ الانتحار مرة جديدة، ورميتي نفسك من النافذة، انخلع كتفك، وكَسرت أربعُةٌ من أضلاعك، وارتجّ مخّك".

فتكلّمت ببطء وتشنّج :

- "أين رودي، أين هو طفلي؟".

- "لا تجهدي نفسك في الكلام، ستتعافين قريباً بإذن الله".

وكيف لها أن تتعافى وهي في منزلٍ غريب، مع رجل لا تعرف اسمه يناديها بحبيبتي، وجسمها لا يقوى على الحركة؟

أنهى الرجل إطعامها ووقف، وقال بهدوء:

- "سأغسل الطبق وأعود بعد قليل، استريحي الآن وسنكمل حديثنا فور عودتي".

- "لا تذهب، أريد أن...".

لم تتابع كلامها بسبب الألم، فطبطب الرجل على كفّ كارمن وقال هامساً:

- "لن أغيب طويلاً، صدقيني، سأغسل الطبق وأنزل لشراء بعض الحاجات للمنزل، كما أن سالي موجودة هنا، فلا داعي للخوف، أرجوكِ يا حبيبتي".

كيف يناديها بحبيبتي وهي تراه لأول مرّة، ومن هي سالي أيضاً، أسئلة كثيرة تتزاحم في رأسها والآلام تمنع كارمن من إطلاقها، فأخذت بالبكاء ما جعل الرجل متسمّراً في مكانه يسألها:

- "لما هذا البكاء الآن؟ أنا لن أتركك".

- "من أنت؟".

سألته وشاهدت خيبة كبيرة على وجهه، فأجابها:

- "هل تعلمين كم أتألم في كل مرة تسأليني فيها هذا السؤال؟ تأملي وجهي أرجوكِ وحاولي أن تتذكّري من أكون".

بكت كارمن من جديد:

- "أنا الذي أفنيتي عمرك لأجله، أنا أكثر شخص تحبيه، أنا أقرب إنسان إلى قلبك، تأملي وجهي جيداً يا عمري، يجب أن تعرفي من أكون بنفسك".

راحت كارمن تتأمل معالم وجهه، فهو يبدو شاباً في العشرينات، رأسه مدوّر وشعره فاتح اللون، عيناه واسعتان وتبرقان، بدا لها شاباً وسيماً ولكن من يكون؟ شعرت بثقلٍ كبير يضغط على جسمها بقوّة، فألقت برأسها على الوسادة من جديد، وأغمضت عيناها المتعبتان.

استقام الرجل وهمس قبل خروجه:

- "ألا يمكنك أن تنامي؟".

هزّت رأسها إيجاباً وخرج من الغرفة، تاركاً كارمن مع آلامها وتعبها وأسئلتها الكثيرة. فنامت لساعات لم تستطع أن تحددها بسبب تأثير الدواء المسكّن.

أكثر ما كان يؤلمها هو معرفتها أن توفيق الأسعد مات مقتولاً على يد زوجها، مات من دون أن يدرك أنه كان الحائط الوحيد الذي يستند إليه خوف كارمن في ليل حياتها. مات من دون أن يدرك أن ما تبقى لكارمن من الأشياء الأخرى ليس كافياً للاستمرار في الحياة والعيش والبقاء والتنفس. مات من دون أن يدرك أن مجرد شعورها بفقد شيء آخر سيجعلها تختنق بحرمانها.

عاد الرجل وكانت كارمن مستيقظة تحدّق وهي على السرير الى النافذة والخوف مُستَولٍ عليها.

- " كيف حال أميرتي الآن؟".

وبسبب زحمة الأسئلة، لم تتمكّن كارمن من طرح أي سؤال على الرجل، فحملها برفق ووضعها على كرسي متحرّك ونقلها الى حديقة المنزل الصغيرة.

راحت كارمن تتأمل هذا المكان، وهي لا تعرف كيف وصلت إليه، هبّت نسمة هواء، فأزال الرجل عن وجهها خصلة شعر متطايرة ودسّها خلف أذنها، كانت صامتة متعبة، وكان هو مستغرقاً في التفكير، مشّط شعرها بأصابعه، وأمال رأسها إلى الوراء، فرأى الخوف في عينيها.

- "ما هذا الذي يحدث معي؟".

برقت عيناه وهو ينظر إليها بمنتهى الرقّة والعطف، ثم أدنى فمه من خدّها، ولمّا قبّلها، شعرت أن هذا الرجل أقرب إليها من زوجها خالد، وحبيبها نوح، وحتى من والدها الغالي أيضاً، لم تشعر قطّ بمثل هذا الشعور، دفئاً وروعةً وصواباً. فسألته مجدداً:

- "من أنت يا سيّد؟".

- "قبل أن أخبرك من أكون، سأروي لك قصة تعرفين معظمها".

ابتسمت كارمن وهزّت رأسها موافقة، وبدأ الرجل بسرد القصّة:

- "بلغني أيتها الأميرة السعيدة، ذات البدايات الجديدة، أن امرأة جميلة اسمها كارمن التي تعذّبت على يد زوجٍ لم يعرف الرحمة، وبعد أن سجنها في منزله وأخرج منه ابنها رودي الصغير، والمربيّة أم عادل، وصديقتها سلمى، اعترف لها ما فعله بوالدها وكيف دسّ له السم في القهوة، وقرر قتلها ليرث ما ورثته من والدها توفيق الأسعد الطيّب.

ولكن العناية الإلهية تدخلت وأرسلت نوح الذي كتب لها رسالة على الهاتف في تلك الليلة وشكرها على السهرة.

وبعد أن تلقى خالد رسالة غريمه نوح وقرأها، أجابه بلسانها برسالة طلب منه فيها أن يأتي، فعل خالد ذلك لينتقم منه أيضاً.

عندما قرأ نوح الرسالة تأكّد أن من كتبها شخص آخر غير كارمن، لأنه كان يعرف تماماً طريقتها في كتابة الرسائل.

فاتصل على الفور بصديق قديم له في الشرطة وطلب النصيحة.

بعد ذهابه، تأكّد من شكوكه وعرف بأن خالد قد نصب له فخّاً، فتمكّن نوح بمساعدة رجال الشرطة من إنقاذ الجميلة كارمن، التي كانت تحتضر على الأرض.

سجن خالد وتلقى حكماً مؤبداً، ولكنه انتحر بعد مرور يوم واحد من تنفيذ حكم المحكمة، ونوح سافر إلى فرنسا وأنهى جميع أعماله المتعلّقة هناك، وانفصل عن زوجته سارة وعاد للبقاء بالقرب من حبيبته كارمن على رغم وضعها".

كانت نظرات كارمن أثناء سماعها للقصة مليئة بعلامات الذهول والدهشة. وتابع الرجل:

- " تزوجها، ولكن آثار الضرب المبرح الذي سبّبه خالد لها، جعل من ذاكرتها تقف عند تلك الليلة فقط، وتمسح كل ما تتلقاه من أحداث وذكريات بعدها".

- "تركها؟".

- "لا، ظل معها لغاية هذه اللحظة، ولكن في قلبها، لأنه مات في حادث ".

- "مات نوح؟".

- "للأسف، منذ سنة تقريباً".

- "وابني الصغير؟".

- "قبل أن أجيبك، هل تعرفين كم مرّ من الوقت منذ تلك الليلة؟".

بقيت كارمن صامتة تنظر إليه بانتظار معرفة المزيد، فابتسم الرجل وقال:

- "لقد مرّ عن تلك الليلة المشؤومة عشرون سنة، وردوي الصغير أصبح رجلاً، وتزوّج من امرأة جميلة وأنجبت له ابناً أسماه نوح على اسم الرجل الذي أحبه وربّاه، رودي الصغير هو أنا يا أمي".

النهاية

بعد الحب

AFTER LOVE

FIRASS JUBRANE



يا إلهي ستموت كارمن. قال بصوتٍ عالٍ من دون وعي. فإذا أصابها مكروه سيحوَّل للقضاء، فما فعله هو شروع بالقتل وعقابه الإعدام شنقاً. وإذا ادعى أنها خائنة وأقدم على ضربها دفاعاً على شرفه، لن ينجح لأنه لا يملك أي دليل يستند إليه. لماذا وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ وهنا أدرك تماماً عندما رأى كارمن جثة أمامه أنه قد أفرط في غضبه، وأن غلطها أصغر بكثير من ردّ فعله. تبخّر جزءٌ من الغضب وجزءٌ من القسوة وبقي الخوف بكامله، فحملها إلى سريرها وراح يدلك يديها الباردتين ويحاول الحديث معها كي تستفيق وتعود لوعيها

فراس جبران